الحياة في المسيح

نقولا كاباسيلاس

عرّبه عن اليونانية
المثلث الرحمات البطريرك إلياس الرابع (معوّض)

منشورات النور
1982

محتويات الكتاب

توطئة
وحدتنا مع المسيح
الاتحاد الأسمى
المسيح هو كل شيء
الحياة الجديدة
أبواب السماء
الخلاص بالمسيح
أبرار العهد القديم
عصر العبودية
قيمة الأسرار
ثمار الظفر الإلهي
نبع النعمة والخلاص
مساهمو الجوائز
الأسرار توحدنا بالمسيح
المعمودية
احتفال المعمودية
الولادة بالمعمودية
لماذا يجب أن يقوم الموتى غير المعمدين؟
حالة النفس المعمدة وحياتها
المعمودية وناموس المحبة
معرفة الله تعطى بالمعمودية
موجز ونتيجة
المسحة ووضع الأيدي
نتائج الختم
السر يفعل فعله
نتائج المسحة المقدسة
السر العظيم
الدواء ضد الخطيئة
ثمار المناولة الإلهية
العبادة الحقيقية
الاستعداد الكبير
نبع الحياة والتقديس
تكريس المذبح
رمز طقوس التكريس
تنازل السيد
طريق السمو
الحفاظ على الحياة في المسيح
الغنى الذي لا يَسبر غوره
أعضاء المسيح
احترام نفوسنا
أعداء التوبة
ماذا يجب أن نفكر؟
فكرنا في الله
أمثلة الجهالة
صورة الوداعة
العطف نحو الآخرين
نقاوة القلب
صراع من أجل التشبه بالمثال الأول
بعيداً عن التخاذل
إرادتنا
تشخيص وشفاء
هيكل الله
الاهتمامات الدنيوية
الحزن من أجل الله
كمال الفرح
المحبة – الفرح
عبودية وعبودية
الحياة المغبوطة

توطئة

الحرية والمحبة هما العمود الفقري لكتاب "الحياة في المسيح" لنقولا كاباسيلاس. والحياة في المسيح في ألوهته، في محبته، في حريته، في ثالوثٍ مقدس لكمال الصورة والمثال بالحرية ولتحقيق الغرض الإلهي المقدس من خلقهِ الإنسان. ويشدد الكاتب على حقائق ثلاث كأبواب للحياة في المعرفة والحق: **المعمودية** التي تدخل إلى حظيرة النقاوة **والمسحة المقدسة** القفل المتين لهذه النقاوة **والمناولة** الحياة الكليّة في المسيح. وفي كل هذا تلعب الإرادة دورها في الحياة الجديدة وعليها يتوقف تقرير نوعيتها فالاختيار من خصائصها وذلك بالحرية منحها إياها الرب احتراماً لما خلقه حراً مختاراً.

إن نقاوة القلب والفكر والروح شرط أساسي لدخول الله إلى مسكنه فالقذارة الحاصلة بسبب الخطيئة والدنس الناتج عن التفكير الشرير بسبب انحراف الإرادة عن طريقها الصحيح وزيغان العقل بسبب إلتواء إرادي تمنع الله الكلي القدرة، الكلي النقاوة، الكلي، الصلاح، النور الذي لا يدانيه نور أن يسكن ف بيت مظلم بالخطيئة. فالمعمودية هذا الحمام الروحي يستهدف غسل الدنس والأوساخ. إنها تميت الإنسان العتيق بظلمته، إنسان الخطيئة وتبعث ابن الثالوث المقدس. الولادة الجديدة ولادة سرية لا يشترك فيها لحم الإنسان ودمه بل التثليث بكل قداسته. إنها البطن الجديد المقدس الذي يميت ويحيي. إنها اشتراك سري في موت المخلص وقيامته،

الحياة المسيحية

تولد الحياة المسيحية في هذا العالم، لكنها تتطور وتنمو فتصل إلى كمال نضجها في الحياة المستقبلة. ويحاول المسيحي أن يحقق، هنا على الأرض، كمال الحياة في المسيح فلا يستطيع لأن تحقيق هذه الحياة يحصل في السماء فقط، هذا إذا نجح في أن يمتلك في الحياة الحاضرة بذار الحياة في المسيح ومبادئها. وما دام الإنسان الآن لا يزال يحمل الجسد الفاني ويشعر بالانجذاب نحو تلك الأمور الباطلة الخاطئة، لا يمكن أن يورث الفساد الخلقي عدم الفساد السماوي. كان الرسول بولس يهرب من هذا العالم شوقاً إلى عدم الفساد وليكون مع المسيح دائماً "فلي رغبة في الذهاب لأكون مع المسيح" (فيلبي 1: 23). أولئك الذين يرحلون عن هذا العالم بدون أن يتسلحوا بالقوى الروحية والمشاعر الضرورية لحياة السماء هؤلاء سيخسرون الغبطة الأبدية وسيقطنون العالم الذي لا يموت أشقياء وأمواتاً روحياً كما كانوا ووجدوا ساعة رحلوا.

لماذا لا يتمتع هؤلاء بالفرح السماوي؟ لأنهم كانوا يفتقرون إلى أبصار روحية تمكنهم من رؤية النور الروحي، رؤية شمس العدل، رؤية المسيح المشع في كل اتجاه. إن أريج الروح القدس سينسكب بغزارة وغنى كريم وسيملأ الجميع ما عدا أولئك الذين يفتقرون إلى المشام الروحية. فابن الله في ذلك اليوم الذي لا يعروه مساء سيجعل من أصدقائه شركاء في الأسرار الإلهية وسيعطيهم كل ما سمعه من أبيه وسيكون هذا الشرف العظيم لأولئك الذين جعلوا المسيح صديقاً لهم في حياتهم على الأرض دون غيره من لا يعمل على الأرض لا يستطيع أن يرتبط برباط الصداقة مع المسيح ولا أن يمتلك سماعاً روحياً ولا أن يهيئ لذاته اللباس اللائق بالنفس. كل هذه الأمور ضرورية للدخول إلى خدر المسيح الكلي الضياء. في معمل الحياة يستطيع المسيحي أن يحقق هذه الأمور. أما الذي يرحل بدون هذه التجهيزات فلا نصيب له في الاشتراك في الحياة غير الفانية. تذكروا العذارى الخمس الجاهلات. تذكروا الذي دُعي إلى العرس. لم يتمكنوا من أن يحصلوا لا على الزيت ولا على اللباس فبقوا خارجاً لأنهم لم يستعدوا في حينه.

وحدتنا مع المسيح

يتكون، هنا على الأرض، بالتعب والألم، الإنسان الداخلي الذي يبنى روحياً حسب الله وعندما يصل إلى الكمال النسبي، يولد بعد الموت في ذلك العالم الكامل الأزلي. وكما تهيئ الطبيعة الجنين وهو في بطن أمه للحياة النيرة كذلك يتكون المسيحيون ويستعدون للحياة الأخرى، وهذا ما يعنيه الرسول بولس عندما يكتب إلى أهل غلاطية "يا بني، أنتم الذين اتمخض بهم مرةً أخرى حتى يُصوَّر فيهم المسيح" (4: 19). إن صورة الأجنة، لا تفي في الواقع بالغرض لأن الأجنة، قبل رؤيتها النور لا تملك أي معنى أو أي شعور عن حياتها الخاصة أما القديسون فيملكون كشوفات كثيرة عن الحياة المستقبلة قبل الموت الذي به يولدون في العالم الآخر. لماذا؟ أن الجنين قبل تكوينه وأتيانه للنور يكون ناقص الوجود والحياة. إنه ما رأى بعد حتى ولا شعاع شمس وما اقترب من تلك الأشياء التي تسهم في الوجود وفي الحفاظ على الحياة الحاضرة، وما جابهها. لا يحدث مع المسيحيين ما يحدث تماماً مع الأجنة لأن الحياة المستقبلة ليست بمجهولة ولا بغريبة كلياً عن الحياة الحاضرة. إنها في ترابط مع هذه الحياة. فالمسيح الشمس الروحية أشرق فينا برحمته التي لا تحد وبتنازله. وإنسكب أريج الروح القدس السماوي في الأرض المتقيأة بروائح الخطيئة الكريهة وقد نفثها سماً. والشيء

الذي يفوق العجب هو أن الخبز السماوي أعطي للبشر.
لأجل هذا لا يملك المسيحيون إمكانية الاستعداد للحياة المستقبلة فحسب بل يملكون إمكانية الحياة والعمل كمواطني السماء. "جاهد في الإيمان جهاداً حسناً وفز بالحياة الأبدية التي دعيت إليها" (1 تيموثاوس 6: 12) يقول الرسول بولس. ويقول في رسالة أخرى "فما أنا أحيا بعد ذلك بل المسيح يحيا فيّ" (غلاطية 2: 20) ويصرخ المتوشح بالله القديس إغناطيوس "ماء حي يتكلم ويقول في داخلي هلمّ إلى الآب" (رسالته إلى أهل رومية). إن الكتاب المقدس مليء بمثل هذه التعابير التي تدعو المسيحي وترشده ليوجه أنظاره إلى فوق.
وبالإضافة إلى هذه التوصيات فالسيد، وهو نبع الحياة الحقيقية، يقول ويعد بأنه سيبقى مع المؤمنين الخلص من أنصاره إلى الأبد (متى 28: 20). أهناك ما هو أسمى من الحياة مع المسيح وأرفع؟
وبعد، فالمسيح لم يعطِ بذار المسيحية فحسب بل أعطى وجوده بالذات، أنه موجود في داخلنا ويعمل فينا "فأن الله هو الذي يحدث فيكم الإرادة والعمل لإرضائه" (فيلبي 2: 13) كما يقول الرسول بولس. فهو الذي يشعل نار المحبة والذي يملك الحرية، أي الحقيقة هذا الكنز الذي لا يثمن. فكما أن الفأس "بدون من يستعملها للقطع" (أشعياء 10: 15) لا تفيد شيئاً كذلك المسيحي إذا لم يكن المسيح عاضده ومعينه. فالمسيح هو المقوي والمشدد لنا. لم يَعِد بأن يكون معنا حالات معينة بل وعد أن يكون مع المؤمنين دائماً. والأعجب أنه قال بأنه سيجعل من أرواحنا بيتاً ومقاماً لسكناه. لماذا أقول مقاماً؟ لأن رحمته هي من العظمة بحيث جعلته يتنازل ويتحد مع مختاريه ويصبح روحاً واحداً، "وأما من اقترن بالرب فقد صار وإياه روحاً واحداً" (1 كورنثوس 6: 17) "فهناك جسد واحد وروح واحد، كما أنكم دعيتم دعوة رجاؤها واحد" (أفسس 4:4) لم يقل هذا القول إنسان عادي. إنه بولس الناطق بهذه الحقيقة الكبرى.

الاتحاد الأسمى

إن صلاح الله لا يعبر عنه ومحبته للجنس البشري لا تقاس. إنها تفوق كل تعبير ومثال "كلام الله الذي يفوق كل إدراك" (فيلبي 4: 7). إن هذا ينطبق تماماً على الوحدة بالمسيح التي تسود وتسيطر على كل وحدة أخرى. ولا يمكن لأي مثل من أمثلة الوحدة البشرية أن يوضح ويعبّر التعبير الحقيقي عن سمو الوحدة بالمسيح. لذلك يكثر الكتاب المقدس من الأمثلة لتقريب هذا إلى مدراك البشر ولإيضاح طبيعة هذه الوحدة المستيكية (السرية). فمثال واحد لا يكفي لإيضاح هذا الرباط الروحي لذلك يتكلم الكتاب المقدس عن علاقة البيت بساكنيه وعن الرباط الوثيق بين الكرمة والأغصان ويعطي الزواج مثالاً، ويبرز الرباط العضوي بين الرأس وأعضاء الجسد. وبالرغم من كل هذا فالأمثلة مجتمعة ومنفردة لا يمكنها أن تعطينا صورة واضحة عن كمال وتمام هذه الوحدة السرية بين المؤمن والمسيح.
نتكلم غالباً عن المحبة التي تربط بين صديقين ولكن أين هو وجه المقارنة بين محبة الصديق بعمقها وصدقها وبين محبة المسيح؟! الزواج يفرض مسبقاً رباطاً روحياً، وحدة عظمى. الرأس يرتبط ويتعامل في تناسق مع أعضاء الجسد. لكن الصورتين تساعدان قليلاً جداً على إدراك وحدتنا مع المسيح لأن الزواج لا يربط الشخصين إلى حد يجعل الواحد أن يكون في الآخر الشيء الذي يحصل بين المؤمن والمسيح كأعضاء حية في كنيسته. لهذا السبب بالذات يريد الرسول بولس، عندما يكتب عن الزواج قائلاً: "إن هذا السر لعظيم" ويضيف حالاً "وأعني به سر المسيح والكنيسة" (أفسس 5: 32)، يريد أن يبيّن أن المقصود بالزواج هو زواج المسيح الروحي، الوحدة مع المؤمنين. وفيما يتعلق بالأعضاء، لا شك أنها مرتبطة بالرأس وهذه الوحدة هي من المتطلبات اللازمة للحياة. أتنفصم هذه الوحدة؟ إن الأعضاء تموت. وهنا العجب: إن أعضاء المسيح أكثر التصاقاً بالمسيح منها بالرأس والبرهان الشهداء الأبرار الذين كانوا يقبلون أن يضحوا أنفسهم مبتهجين. كانوا يضحون بالرأس من أجل المسيح، من أجل الوحدة معه، وكانوا يقبلون بتوتر الأعضاء والجلد والموت من أجل هذه الغاية.

فختم هؤلاء أفواههم بقداسة الوحدة ومن أجلها فماتوا لا يتكلمون ولا ينطقون حتى بكلمة يُشتم منها رائحة التذمر وإن سطحياً.
سأقول شيئاً آخر عجباً واستغراباً. أيوجد ما هو أعظم من الوحدة التي يشعر بها الإنسان في أعماقه؟ هذه الوحدة هي في المرتبة الدنيا إذا قيست بالوحدة السرية القائمة بين المسيح والروح. لأن المسيحي المؤمن يرتبط ويلتصق بالمسيح ارتباطاً أوثق مما بكيانه الذاتي. إنه يضع محبة المسيح فوق محبته الخاصة والرسول بولس شاهد على ذلك: "لقد وددت لو كنت أنا نفسي ملعوناً ومنفصلاً عن المسيح في سبيل إخوتي بني قومي من النسب" (رومية 9: 3) لكي يخلص اليهود فيتمجد اسم الرب أكثر. كانت روحه تشتاق أن تهلك من أجل المسيح. فإذا كانت محبة الإنسان للمسيح إلى هذا الحد عظيمة أفمن الممكن أن يدرك المرء علو محبة المسيح للإنسان وعمقها؟ من نفوس الخطأة التائبين ينسكب العرفان بالجميل لله ومثال بولس دليل على ذلك. ماذا يقول المرء عن غنى الصلاح الإلهي؟ عجيبة إذاً وفائقة الطبيعة المحبة التي توحّد الإنسان بالله وطبيعي أن تكون الوحدة التي هي ثمرة هذه المحبة قوية وعظيمة فلا يستطيع العقل البشري أن يدركها.

المسيح هو كل شيء

كثيرة هي العناصر الضرورية لحياتنا كالهواء والنور والغذاء واللباس وقدرتنا الطبيعية وأعضاء جسدنا. ومع ذلك فإننا لا نستعملها كلها في وقت واحد. حيناً نستعمل هذه وحيناً تلك وفقاً لمتطلبات الساعة. كذلك أيضاً لا يستطيع عنصر واحد أن يغطي كل حاجاتنا، فاللباس يصلح لحماية الجسد لا لتغذيته، ولكي نخرس صوت الجوع يجب أن نطلب لنحصل على الغذاء. النور لا يقوم مقام الهواء، والهواء مهما كان ثميناً لا يعوّض عن شعاع شمس واحد، وكذلك أعضاء جسدنا فكثيراً ما تبقى أعيننا وأيدينا ساكنة عندما يكون السماع في حركة وذلك لأننا لا نستعمل كل حواسنا في وقت واحد. أصابع اليد صالحة لخدمة حاسة اللمس وعندما نريد أن نشم أو أن نسمع أو أن ننظر فإننا نستعمل الأعضاء المخصصة لها في الجسد.
إن المخلص هو للأرواح المتحدة به الألف والياء ويتجاوب مع كل رغبة وبه كل القدرة ليرضي ويحقق حتى أعمق ضرورات النفس. إنه لا يدع النفس تميل بأنظارها أو تتجه برغباتها إلى شخص غير شخصه وإلى غرض خارجاً عنه، لأنه يحقق لها ويعطيها كل شيء ولن تحتاج النفس إلى شيء إلا وتناله من المسيح إذ لا شيء خارجه. إنه هو الذي يعطي للنفس الوجود والحياة. يغذيها ويهبها إمكانية الانفتاح لترى أنه هو المغذي والغذاء للروح. يعطيها خبز الحياة والوجود وهو هذا الخبز. إنه الحياة للذين يعيشون بشذاه الروحي الإلهي. إنه اللباس الروحي المقدّم للذين يرغبون أن تتشح به نفوسهم والطريق الذي يجب أن نسلكه في حياتنا. إنه هو المسدد لخطواتنا لمتابعة رحلتنا آمنين. إنه نهاية للطريق ومحطة نقف فيها ومسكن لحياتنا طوال سفرتنا الأرضية.
أننا نحن الأعضاء، والرأس هو المسيح. أنجاهد "الجهاد الحسن"؟ إنه يجاهد معنا. أنتقدم في الجهاد؟ إنه المجلّي. أنحرز انتصارات روحية؟ المسيح على استعداد ليضفر الإكليل فوق رؤوسنا. وهكذا يصبح المسيح محوراً لحياتنا فلا يدعنا نهتم أو نلصق قلوبنا إلا به. مهما تعددت اتجاهات أحلامنا فلن تصادف غير المسيح فهو قمة السمو لأحلامنا السامية. المسيح يحتضن الكل ليحقق كل رغبة من رغباتنا الإلهية المقدسة. أين تتوجه الروح ولا يكون المسيح؟ "إن صعدتُ إلى السماء فأنت هناك وإن نزلت إلى الجحيم فأنت حاضر وإذا أخذت جناحين كالحمامة وطرت إلى أقاصي الأرض فيدك هناك تقودني وتسندني يمينك". إن السيد المسيح بسحر رحمته العجيب وبقوة سلطانه على الأرواح يجذبنا إليه ويتحدنا به. ومَثَلُ العشاء الذي صنعه السيد وملأ مائدته بالخيرات ليقنع المدعوين بالدخول إلى بيته يشير إلى هذه القوة العجائبية ذات السلطان الإلهي "وأحمل من فيها على الدخول، حتى يمتلئ بيتي" (لوقا 14: 23).

الحياة الجديدة

تصبح الحياة بالمسيح واقعاً لا في السماء فحسب بل هنا على الأرض للمسيحيين الذين يعيشون فيه بالطبع، ويعملون وفقاً لمتطلبات الحياة السامية. الحياة في المسيح ممكنة ومحققة لذلك يحثنا الرسول بولس على السير "في حياة جديدة" (رومية 6: 4). من الضروري أن يشرح ما يجب أن يفعله المسيحي ليحظى بالوحدة مع المسيح التي لا يمكن أن نجد لها تحديداً كاملاً ودقيقاً. يجب أن يتضافر عاملان لتحقيق هذه الوحدة العظيمة الباهرة: النعمة الإلهية العاملة دائماً وتقبل الإنسان واجتهاده. ما هو المطلوب من الإنسان؟ أن يتقبل النعمة وأن يخضع إرادته لها، وألاّ يشي بالكنز الذي أئتمن عليه، وألاّ يطفئ سراج النشاط الذي أشعلته في روحه، وألاّ يقود إلى الذبول الروحي والموت. ومصلحتنا الحقيقية تفرض علينا ألاّ ندير سيف الخطيئة ضد نفوسنا وألاّ نهرب من السعادة الروحية وألا نرمي إكليل المسيح عن رؤوسنا. فالمسيح الحاضر دوماً في أرواحنا يغرس "الحياة الجديدة" فيها باستمرار وبطريقة لا يعبّر عنها. أنه دائماً معنا ويساعدنا على تطوير حياتنا الروحية التي أعطانا لنا بالتضحية التي قدمها على الصليب. فالمسيح حاضر لا كما كان على الأرض، ولا كما كان يتصل بنا على الأرض، بل بطريقة أكثر كمالاً نصبح بواسطتها أعضاءه ونؤلف معه جسداً وروحاً واحداً. إن تنازله إلى هذا القدر يعبر عن رحمته التي لا حد لها. لقد أحب رجالاً لا يستحقون محبته، رجالاً خطأة، أعداء، وملأهم بنعمته عندما رآهم يسلكون طريق العودة التائبة. إن وحدة المسيح السرية مع مختاريه لا يمكن أن يعبر عنها وكذلك الطريقة التي تحلّ بواسطتها في النفوس، نفوس أولئك الذين أحبهم وأعطاهم نعمته وموهبته كما يليق بالذي يدير الكائنات العجيبة العظيمة.

أبواب السماء

إن الموت الذي ذاقه السيد حقاً لنحيا نحن، يتمثل في سر الشكر الإلهي الذي به نصير شركاء ومساهمين في حياته، لأنه بأسرار الكنيسة يتمثل قبر المسيح ويعلن موته. الذين يصيرون مساهمين في الأسرار يولدون من جديد، ويعاد تكوينهم بصورة فائقة الطبيعة، ويرتبطون ويتحدون بالمخلص. وعندما يعلن الرسول بولس من على صخرة آريوس باغوس أمام اليونانيين ويقول: "به نحيا ونتحرك ونوجد" (أعمال 17: 28) يشير إلى الفعل العجيب الحاصل بواسطة الأسرار. وفي الواقع إن المعمودية تعطي للإنسان الحياة والوجود بالمسيح. تأخذ الإنسان الفاسد بالخطيئة، الإنسان الميت روحياً، وتدخله إلى الحياة الجديدة بالمسيح. والمسحة التي تلي المعمودية فوراً تعطي المعتمد مواهب وأفعالاً ضرورية للحياة بالمسيح. وسر الشكر الإلهي يحفظ الحياة الروحية والصحة ويركزهما لأن خبز الحياة يعطينا الإمكانيات لنحفظ هذه الكنوز ولنبقى دائماً في الحياة السامية. بسر الشكر الإلهي نحيا، وبالمسحة نتحرك ونعمل، أما وجودنا الروحي فنأخذه بادئ ذي بدء بالمعمودية.

في الله نحيا وننتقل روحياً من هذا العالم المادي إلى العالم السماوي غير المنظور. أننا لا نغير مكاناً بل نغير طريقة الحياة ومنهاجها. نحن لم نتحرك ولم نصعد إلى الله بل الله تنازل وقدم لنا. لم نطلبه نحن بل هو الذي جاء يطلبنا. الخروف لم يطلب الراعي بل الراعي طلبه. الدرهم لم يطلب رب البيت بل رب البيت فتش عنه. الخالق هو الذي انحنى إلى الأرض ووجد الصورة التي شوهت بالخطيئة. جاء الراعي إلى الأمكنة التي ضل فيها الخروف واعتق الإنسان من الضلالة. لم ينقله من الأرض بل جعل الإنسان سماوياً. غرس حياة السماء في نفوسنا. لم يأخذنا إلى السماء بل بطريقة عجيبة أحنى السماء ونقلها إلى الأرض. تحقق ما كتبه داود النبي "أحنى السماء ونزل" (مزمور 17: 10). إن شمس العدل استعمل الأسرار المقدسة كأبواب ليدخل إلى هذا العالم المظلم فيميت بإشعاعه الإلهي حياة الخطيئة من ناحية ويقيم من ناحية أخرى الحياة الروحية الفائقة العالم. إن المسيح، نور العالم، يغلب الخطيئة كما أعلن وقال: "لقد غلبت العالم" (يوحنا 16: 33) ويُدخل إلى جسدنا الفاني المائت الحياة الخالدة.

عندما تنسكب أشعة الشمس لتنير إحدى الغرف يخبو نور المصباح الضئيل ولا يثير انتباه أحد. إن

ضياء نور الشمس يسيطر ويسود على كل الأنوار البشرية، والنور السماوي عندما يدخل إلى نفوسنا بواسطة الأسرار يسيطر على النفس ويسودها ويغلب كل جمال عالمي فيها، ويقضي على الخطيئة ويطفئ كل رغبة خاطئة وضياء ظاهري. والحياة الروحية التي تتراجع أمامها كل رغبة خاطئة وضيعة، وينطفئ كل شوق أمام شوقها اللاهب، هي التي يعنيها الرسول بولس عندما يقول: "اسلكوا سبيل الروح ولا تقضوا شهوة الجسد" (غلاطية 5: 16).

رسم السيد هذا الطريق لنسلكه، وفتح هذا الباب الجديد للحياة الجديدة عندما جاء إلى العالم، ولم يقفله بعد صعوده إلى أبيه بل تركه مفتوحاً لندخله. به يتصل فينا أو بالأحرى يكون معنا وسيظل إلى منتهى الدهر ليتم كل ما وعدنا به. إن كلمات يعقوب تنطبق على الباب الذي فتحه المسيح للحياة الجديدة: "ليس هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء" (تكوين 28: 17). لا تنزل الملائكة من هذا الباب، فالملائكة إنما يحضرون أثناء إقامة السر بل السيد بذاته. لذلك عندما طلب البريء من الخطأ أن يعتمد من يوحنا السابق لعظم تنازله فتح السماء حالاً دالاً على أن الإنسان يستطيع بالمعمودية أن يرى ويحتل السماء وقد شدد بكل وضوح قائلاً من لا يعتمد لا يستطيع أن يدخل ليرث الحياة الأبدية. وبهذه الكلمات جعل المعمودية مدخلاً وباباً ضرورياً على الإنسان أن يجتازه. هذا ما رمز إليه النبي داود وهذه هي الأبواب التي أشتاقها واشتاق أن يراها مفتوحة "افتح لي أبواب العدل".

كثيرون هم الأنبياء والملوك الذين اشتاقوا أن يروا مهندس هذه الأبواب الروحية آتياً إلى العالم، أن يروا مؤسس الأسرار وواضعها، لذلك يكتب داود ويقول أنه إذا أهِّل لأن يدخل الحياة الأبدية من هذه الأبواب: "إذا أدخلت منها فأني أعترف للرب"، سيعترف للرب الذي يمجده. كان داود يؤمن أنه إذا أدخل من هذه الأبواب سيتمكن أن يعرف معرفة أفضل صلاح الله وتنازله من أجل الجنس البشري.

أي برهان أعظم من هذا البرهان على صلاح الله ورأفته من أن يرى المرء إنساناً خاطئاً يعتق بالمعمودية من كل دنس الخطيئة، ويصبح بالمسحة (بالميرون) ملكاً مهيئاً للملكوت السماوي، ويصبح شيئاً عجيباً مساهماً في سر الشكر الإلهي ومشتركاً بجسد المسيح ودمه؟! أننا نحن البشر، بالنعمة الإلهية، نصير آلهة وأبناء الله. وقد تشرفت طبيعتنا فصار الله إنساناً وارتفع جسد الإنسان، هذا الغبار، ارتفع إلى العلاء حتى صار مشاركاً في العرش للطبيعة الإلهية. كل هذا من نتاج محبة الله التي لا تحد ورحمته العظيمة.

أهناك ما هو أعظم من التنازل الإلهي؟ إنه فضيلة المسيح التي غطت السماوات. أعتقد أن التنازل فاق كل خليقة وكل عمل إلهي وغلب كل شيء فيما يتعلق بالمدى والجمال الروحي. أعمال الله كلها كثيرة صالحة وعظيمة. عظيم هو فنّه، وحكمته لا حدّ لها. إنه يستطيع أن يخلق مخلوقات أخرى أعظم وأجمل ولكن أسمى تعبير عن عظمته هو هذا الصلاح، صلاحه. إن عمل الله الدائم هو إعطاء خيراته ومن أجل هذا يفعل كل شيء.

جعل الله الغاية من وجودنا التشبه به لنصير شركاء في خيراته الأبدية. لا يوجد تعبير عن صلاحه الإلهي أعظم من هذا التعبير. ويظهر غنى هذا الصلاح في عمل الرب الخلاصي. وأننا مدعوون لنندهش لصلاح الله العظيم ونعجب. لم يعط الله الطبيعة البشرية قسماً معيناً من الخيرات ولم يبق القسم الآخر خاصاً به بل أعطى "كمال اللاهوت" (كولسي 2: 9)، كل غناه الإلهي. لذلك يقول الرسول بولس أن التبرير، أي الخلاص الذي وهبه الله للإنسان، ينكشف، يصبح حقيقة بالإنجيل لأن كل جمال الفضيلة والنعمة الإلهية يظهر، خاصة عندما يصبح البشر شركاء في الصالحات وفي غبطته الخاصة. لذلك نستطيع أن نسمي أسرار الكنيسة أبواب النعمة والخلاص، ورحمة الله التي لا تُحدّ وصلاحه غير المتناهي هما اللذان فتحاها لندخلها.

الخلاص بالمسيح

كيف غلب المسيحُ وركّز راية الغلبةِ الأبدية وفتح لنا الطريق والباب الموصلين إلى السماء؟ لم يخطف أسرى الخطيئة عنوة بل أعطى حياته بدلاً وربط القوي (الشيطان) وملك على نفوس البشر بعد أن قضى على طغيان العدو، لا لأنه يملك القوة بل لأنه بتضحيته وموته أعطيت له سلطة القضاء على أعمال الشيطان عدلاً وحقاً. وقد كشف النبي هذا العدل بقوله: "عدل وحكم تهيئة عرشك"

(مزمور 88: 15).
إن العدالة الإلهية لم تفتح فقط أبواب الخلاص، بل أظهرت من خلالها للجنس البشري لأنه لم يكن بالإمكان، في الأجيال الغابرة أن يجد الإنسان عدلاً قبل أن يتجسد المسيح. فالله ذاته الذي لا تخفاه خافية ككلي المعرفة، فتش ليجد وقتئذ عدلاً على الأرض فلم يجد "الكلّ زاغوا والتطخوا وليس من يعمل صلاحاً حتى ولا أحد" (مزمور 13: 3) ولكن عندما أشرقت الحقيقة وأنارت الذين في الظلام وضلال الكذب ظهرت العدالة من السماء بصورة كاملة وحقيقية للناس. وهكذا تبررنا نحن، أعني أعتقنا من الجريرة ومن رباط الخطيئة. حكم على البريء من الخطأ بالموت على الصليب وهو الذي لم يفعل ظلامه واحدة. دِينَ من أجل الخطايا التي ارتكبناها نحن وأصبحنا بموت السيد، نحن الخطأة، أبراراً وأصدقاء لله. فالمخلص لم يقض على طغيان الشيطان فقط ولم يصالحنا مع الآب فحسب بل أعطانا في الوقت نفسه "أن نكون أولاداً لله" (يوحنا 10: 12) ولما كان قد وحّد طبيعتنا بألوهته فإنه بأسرار الكنيسة وحّد كلَّ واحد منا مع ذاته وبهذه الطريقة وهبنا نعمته وحياته. الخلاص الحقيقي إذاً يذوقه الإنسان ويناله بالأسرار التي أسسها السيد.

أبرار العهد القديم

قبل تجسد الرب كان هناك صدّيقون وأصدقاء للرب ويتكلم العهد القديم عنهم كثيراً. كان جميع هؤلاء يعيشون على رجاء مجيء المخلص الذي سيقدّم البدل من أجل خلاصهم. كانوا مستعدين ليسارعوا إليه لو ظهر في أيامهم ليتمتعوا بالحرية الروحية ويروا نور العالم ويهجروا الظلّ والرسوم ما دامت الحقيقة والجوهر ملك أيديهم. بهذا كان يتميز الصديقون عن الأشرار في العصر الذي قبل المسيح.
مات الصديقون والأشرار فوجدوا أنفسهم بعد الموت بعيدين عن النور، لقد تحمّل الصديقون والأشرار القيود نفسها وعبودية العدو نفسها. ولكن ما هي الفروقات التي كانت تفصل بين الصديقين والأشرار؟
كان الصديقون يتألمون من حالتهم وكانوا يضرعون بكل نفوسهم إلى الله لينقرض سجن الشيطان وتنحل العقالات. كانت الرغبة تلهبهم ليروا رأس العاتي مداساً مسحوقاً. أما الخطأة فقد ركبتهم العماوة فما كانوا يشعرون بحالتهم المرعبة، وكانوا يريدون أن يبقوا عبيداً بين كفيّ الشيطان.
ألم يحدث هذا في عصر السيد المسيح مع الكتبة والفريسيين ورؤساء اليهود؟ لم يقبلوا ثمن العدل، لم يقبلوا المسيح. حاولوا أن يطفئوا نوره فعملوا المستحيل لخنق اشعاعاته وبهاء نوره. وفي الجحيم حيث نزل المخلص بعد موته على الصليب وجد صدّيقين وخطأة. استقبله الصديقون فتحرروا من العقالات والطغيان أما الخطأة الذين تشوهوا كلياً فلم يقبلوا ملك الكل فبقوا في الظلمة أسرى أبديين بين يدي الطاغي العاتي.
إن الصديقين في أيام العهد القديم أظهروا بدون شك فضيلة كبرى ولكنهم لم يكونوا معتقين من النقائص والضعف. كان هؤلاء مرضى كالخطأة من الفارق أنهم كانوا يشعرون بضعفهم وكانوا يستجدون شفاءهم من الطبيب. أما غير التائبين، الخطأة الملتوون فكانوا لا يقرون بجريرتهم وما كانوا يرغبون أن يخلصوا من عبودية الخطيئة.
في ذلك العهد سمّى الله البعض صديقين وأصدقاء. لأنهم فعلوا ما كان بإمكانهم أن يفعلوه وحققوا لأنفسهم فضيلة وعدلاً حسب قدرتهم. ولم يكن عدلهم أهلاً بخلاصهم فالمخلص لم يكن بعد قد ظهر.
لو كان عدلهم كاملاً لكان هؤلاء في "يد الله وفي سلام" (حكمة 3: 2–3). وبما أنهم لم يتمكنوا من تحقيق هذا الكمال انتهوا بعد الموت إلى الجحيم. لكن السيد يسوع وهب التبرير الحقيقي للإنسان وحقق المصالحة مع الله ولم يكن بامكان أي إنسان أن يقدم لنا مثل هاتين الهديتين اللتين لا تثمنان لأنه "لم يصعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء، أعني ابن الإنسان الذي كان في السماء" (يوحنا 3: 13).
قبل ذبيحة السيد على الصليب لم يكن هناك ترك للخطايا. لم يكن إنعتاق من حكم الجحيم فهل كان بالإمكان التكلم آنذاك عن التبرير؟ قبل المصالحة مع الله كانت ربط الخطيئة غير محلولة وبقيت. كان الإنسان يموت ولا سبيل لوقوفه في صف أصدقاء الله ولا مجال ليتوج بأكليل المجد الإلهي. لم تكن لحمل الفصح اليهودي الذي كان يقدم كضحية، لم تكن له القوة التي تخلّص الإنسان. فلو كانت لهذه

الرسوم والصور في العهد العتيق القوة لتهب الغبطة المرغوبة لما كان للحقيقة والخلاص اللذين وهبهما الله من داع وإذا كان البشر قبل الذبيحة الصلبية أصدقاء لله وأبراراً فلماذا أراد الربّ بموته أن يقضي على العداوة ويهدم الحائط المتوسط بين الله والبشر الذي أوجدته الخطيئة، وأن يهب الخلاص ويوطد السلام؟

عصر العبودية

في ذلك الزمان كان ناموس موسى أمّا الآن فالإيمان بالمسيح ونعمة الروح القدس وكل ما يتبع النعمة التي تربطنا بالله. في ذلك الزمان كان عصر عبودية أمّا اليوم فالذين يرتبطون بالمسيح يتصلون بالله كأصدقائه وأبنائه. إن الناموس أعطي في العهد القديم للعبيد أمّا النعمة والإيمان والجرأة فصفات من صفات المسيحيين، أصدقاء الله وأبنائه. وكم كان ينبغي أن يكون "البكر بين الأموات" (كولوسي 1: 18) أي أن يقوم ذاك ليقوم كل الأموات، كذلك وبالطريقة نفسها صار صورة للقداسة والعدالة عند البشر. يشدد الرسول بولس على هذه الحقيقة الأساسية عندما يكتب للعبرانيين: "دخل يسوع من أجلنا سابقاً لنا وصار حبراً للأبد" (عبرانيين 6: 20). دخل إلى قدس الأقداس بعد أن قدّم نفسه ضحية لأبيه. دخل وأدخل معه إلى هذه الأقداس كل أولئك الذين صاروا شركاء في موته بالمعمودية وأخذوا النعمة بالمسحة المقدسة واشتركوا في سر الشكر الإلهي وتناولوا من كأس الحياة المقدسة. وبهذه الأسرار التي هي بمثابة أبواب السماء يُدخل المسيح المؤمنين إلى ملكوته ويُتوجهم بالإكليل الذي لا يذبل.

قيمة الأسرار

هذه الأبواب، أعني الأسرار الكنيسة، لها قيمة أسمى وفائدة اجل مما لأبواب الفردوس. أبواب الفردوس تنفتح أمام أولئك الذين يلجون أبواب الأسرار أولاً وأبواب الأسرار انفتحت عندما كانت أبواب الفردوس مقفلة. انفتحت أبواب الفردوس مرة وانقفلت تاركة خارجاً قوات الظلام، أما الأسرار هذه الأبواب السرية فإنها تُدخل ولا تخرج أحداً. كان من الممكن أن تنقفل الأبواب التي للفردوس كما انقفلت زمناً طويلا أما فيما يتعلق بالأسرار فقد سقط بها الحجاب والحائط المتوسط، قد هدم ولم يعد بالإمكان أن يقام حاجز وان يفصل جدار بين الله والإنسان.

لم تنفتح السماء فحسب بل انشقت كما يقول لوقا الإنجيلي ليبرهن انه لم يبقَ أمام الداخلين لا باب ولا حجاب. فالمسيح الذي صالح ووحّد العالم العلوي مع العالم السفلي ووطد السلام وأزال الحاجز المتوسط "لا يستطيع أن ينكر ذاته" (2 تيموثاوس 2: 13) كما يقول الرسول بولس. أن أبواب الفردوس التي كانت مفتوحة لآدم في البدء اقفلت والعدل يقضي بأن تقفل ما دام آدم لم يرد أن يبقى في حالة البراءة التي مُنحها عندما خرج من يد الخالق. وهذه الأبواب المقفلة (أبواب الفردوس) في وجه الإنسان الساقط فتحها المسيح بذاته الذي لم "يفعل خطيئة واحدة" (1 بطرس 2: 22) "وعدله إلى دهر الداهرين" (مزمور 9: 3).

المسيح فتح أبواب الفردوس ومن الضروري أن تبقى مفتوحة وان تدخل المسيحيين إلى الحياة الأبدية ولا خوف من السقوط كما سقط آدم الذي خسر الفردوس الأرضي لان المخلص يقول: "أنا أتيت لتكون لكم حياة" (يوحنا 10: 10) فالحياة التي حملها السيد تعطي لنا بواسطة الأسرار التي نصبح بها شركاء في الآلام والموت. فمن لم يشترك بالأسرار لا يتمكن من الهرب من الموت الروحي والذين لم يعتمدوا ولم يتناولوا جسد المسيح ودمه لا يستطيعون أن يرثوا الحياة الأبدية.

ثمار الظفر الإلهي

لا يمكن للإنسان أن يعيش في وحدةٍ مع الله إذا لم يمت مسبقاً. ولكن الله يستطيع أن يجعل الإنسان أهلاً بأن يميت حياة الخطيئة. وتفرض العدالة أن يصارع الإنسان وأن يغلب الخطيئة وحده ما دام قد سقط بإرادته في الخطيئة. لكن بعد أن صار عبداً للخطيئة لم يعد بإمكانه أن يتغلب عليها بقواه الخاصة. فالخطيئة بعد السقطة صارت سيدة وصار الإنسان عبداً. أكان بالإمكان أن يظهر الإنسان أقوى من الخطيئة ما دام "ليس عبد أفضل من سيده"(يوحنا13: 16) لقد صار عبداً تحت أقدام الخطيئة من كان مفروضاً أن يكون الغالب الظافر.

لم يكن ممكناً أن تشرق الحياة الروحية الحقيقية حيث كان سلطان الخطيئة يمتد، كان على الإنسان الذي سقط بإرادته في الخطيئة أن ينصب وحده رايات الظفر ضد الخطيئة. الله وحده يملك هذه القوة لتحقيق مثل هذا الظفر العظيم وليظهر ظافراً أبدياً. لذلك صار إنساناً. وهكذا اتحدت الطبيعتان الإلهية والإنسانية في شخص السيد. اتحد الإنسان المفروض عليه أن يغلب الخطيئة والله الذي له القوة لإحراز هذه الغلبة. فالمسيح يجعل الصراع من اجل الإنسان صراعه الشخصي لأنه إنسان أيضاً وكبريء من الخطأ يغلب الخطيئة لأنه في الوقت نفسه كلي القدرة. هكذا تحرر الإنسان من العبودية والعار وتكلل بإكليل الظفر وسقطت مملكة الخطيئة والآن بعد غلبة المسيح يتحرر الإنسان بسهولة من عقالات الخطيئة.

إن المخلص يعطي للمؤمنين القوة ليميتوا حياة الخطيئة ويصبحوا شركاء في الظفر العظيم. كان من العدل أن ينال المخلص الإكليل وان يظهر كغالب بعد أن نصب راية الظفر ضد الخطيئة. إن السيد المسيح سمّر على الصليب من اجلنا نحن الخطأة وتحمّل الآلام والجراحات التي فتحتها المسامير وذاق حتى مرارة الموت " وتخلى عما عرض عليه من هناء وتحمل الصليب مستخفاً بالعار" (عبرانيين 12: 2) يقول الرسول بولس. إن السيد لم يفعل ظلامة واحدة "خطيئة واحدة لم يفعل" لقد بقي خلواً من الخطيئة بريئاً. لذلك لم يستطيع الشيطان النمام الوقح أن يجد علة يهاجمه بها ويتهمه والموت نفسه لم يكن له سلطان عليه لان الجرح والألم والعذاب والموت هي من نتاج الخطيئة وثمارها. فلو لم تدخل الخطيئة إلى عالم الإنسان أكان الله قبل أن يسمح بالموت وهو الجزيل الرحمة؟ إن إيماننا بصلاح الله يتنافى منطقياً مع اعتقادنا أن الصلاح الإلهي يحب أن يرى حكم الموت المرعب ممتدا ومسيطراً على العالم. بعد سقطة الإنسان سمح الله بالموت لا كقصاص عن الخطيئة بل كداء للرجل الضعيف بسبب الخطيئة وبما أن الموت لم يكن له سلطان على السيد لأنه كان بريئاً من كل خطيئة فالمخلص شفى بموته مرضنا الروحي بدوائه الأبدي الكلي القدرة. إن قوة الموت على الصليب تعطي لنا القوة لقتل جرثومة الخطيئة لان جرح البريء من الخطأ أرضى العدالة الإلهية من اجلنا نحن المؤمنين.

نبع النعمة والخلاص

إن الترضية التي قدمها السيد بذبيحته السرية على الصليب كانت جداً عظيمة وفوق ما يطلبه دَيْن الخطيئة. فهي لم تحررنا من الجريرة والحكم فحسب بل وهبتنا غنى خيرات لا تثمن. لقد أهلتنا لأن نصعد حتى إلى السماء وأن نصير شركاء ومساهمين في ملكوت الله. وأنى للإنسان أن يفكر أننا كنا قبلا أعداء لله بسبب الخطيئة وعبيداً للأهواء يملؤنا الخزي والعار؟ لا أحد يستطيع أن يستوعب اتساع ذبيحة السيد وقيمتها. يا لعظم شرف الموت على الصليب لقد قبل المخلص تنازلاً أن يباع إلى صالبيه بثلاثين من الفضة. صار فقيراً، أهين وبيع من اجلنا. وهنا العظمة. كانت الإهانة التي تحمّلها ربحاً لنا. مات باختياره دون أن يظلم أحداً لا في حياته الخاصة ولا في حياته العامة. صار بموته نبعاً للنعم حتى لجالديه.

ولماذا كل هذا التبسط في الموضوع؟ إن الإله الإنسانٌ قد مات. والدم الذي أريق على الصليب هو دم

الإله الإنسان. أهناك ما هو أفظع وما هو اثمن من موت الإله الإنسان؟ كم كان ثقل خطيئتنا كبيراً حتى احتاج إلى هذا الموت لإرضاء العدالة الإلهية؟ وكم كان الجرح عميقاً حتى احتاج إلى فاعلية الدواء القوي النابع من ضحية الإنسان الإله على الصليب ليشفى؟ كان من الضروري لكي نقضي على سلطان الخطيئة أن يعاقب إنسان ما. كان من الضروري أن نتحمل نحن عقاباً يوازي ثقل الخطيئة التي ارتكبناها حتى ننعتق من المسؤولية والجريمة لم يكن بين البشر إنسان خالٍ من الخطيئة ليستطيع أن يتألم من أجل الجميع حتى ولا الجنس البشري كله ولو مات ألوف الميتات بامكانه أن يقوم بهذا العمل. ما قيمة موت عبد مليء بالعار والفساد، عبد حطم الصورة الملوكية وأهان العظمة الإلهية إهانة كبرى؟ لذلك حمل السيد البريء من الخطأ، الإنسان الكامل، آلاماً كثيرة وقبل الجراحات ومات ودافع عن الجنس البشري واعتق جنسنا من مسؤولية جريمة الخطيئة العظمى وأعطى العبيد الحرية التي لم يكن بحاجة إليها كإله وسيد. كل ما قيل قد قيل ليبرهن على أن الحياة الحقيقة تعطى لنا بواسطة موت المخلص.

مساهمو الجوائز

عندما نشترك في الأسرار فإننا نجعل حياة المسيح حياتنا وتعطي المعمودية والمسحة المقدسة وسر الشكر هذه الحياة. وعندما نصبح مساهمين في الأسرار الإلهية يدخل المسيح إلى نفوسنا ويسكن فيها ويلتصق ويتحد ويحل الخطيئة الموجودة في النفس ويعطيها حياته ويجعلنا شركاء له في ظفره (يا للصلاح!) ويعلننا غالبين ظافرين. إن الغلبة والإكليل هما نتيجة الآلام والعرق. لماذا نظهر غالبين في اشتراكنا في الأسرار وننال الأكاليل والجوائز؟ لأنه وإن كنا لا نتعب ولا نجاهد فإننا باشتراكنا في الأسرار نمجد جهاد المسيح ونعجب بغلبتهونسجد للراية ونظهر محبة حارة لا توصف نحو الغالب والظافر الأبدي. أن كلومه وجراحاته وموته هي كلومنا وجراحاتنا وموتنا ونصير جسداً واحداً مع جسد المسيح الذي مات وقام لذلك نتمتع بالخيرات النابعة من جهاد المسيح وموته.

لنفرض أن مجرماً طاغياً قد وقع في يد العدالة. لا شك أن الموت سيكون من نصيبه. ماذا يكون الحكم على إنسان يتقدم من المحكمة ليدافع عن الطاغي وعن جرائمه ويطلب إخلاء سبيله ويكيل له المدائح ويعتبر أن الحكم على الطاغي البريء حكم عليه وأن المحكمة قد تجردت من كل وجدان وصورت القوانين ظلماً وتعسفاً؟ تصوروا إنساناً كهذا واحكموا أنتم على فعله. ألا يستحق من يدافع عن المجرم بوقاحة وصفاقة وجه الحكم الذي يستحقه المجرم؟ لنأخذ الصورة المعكوسة. تصوروا إنساناً خيّراً صالحاً تمكن أن يحوز على إكليل الظفر وإنساناً آخر يفرح بهذا إنسان فرحه بنفسه، يتهلل ويفرح ويركع على الأرض إجلالاً واحتراماً، يضمه إلى صدره ويقبله، ألا يستحق هذا الإنسان أن يكون شريكاً في مجد هذا الإنسان الصالح؟

أننا نحمل الأشرار مسؤولية نواياهم وأعمالهم، ترى لماذا لا نعطي وزناً لكل عمل صالح وتعبير خيّر؟ من الضروري أن نضيف ما يأتي: لا يحتاج المسيح الذي نصب هذه الراية إلى جوائز، إنا يرغب ويرجو أن يرى إكليل غلبته فوق رؤوسنا. لماذا نرفض أن نحوز على الإكليل الذي احتاج للحصول عليه الصراع الطويل المضني؟ لماذا نرفض أن ننالة بدون تعب وأخطار؟ إن المعمودية تهب لنا هذا الإكليل وكذلك المسحة المقدسة والاشتراك في دم يسوع المسيح وجسده. عندما نصير شركاء في الأسرار نستنكر الظالم، الشيطان ونتهمه ونبصق عليه، وفي الوقت نفسه نمدح المسيح الغالب ونعجب به ونسجد له ونحبه من أعماق قلوبنا.

من الواضح أن المسيح جاهد وغلب من أجلنا. قبل الموت لنغلب نحن، لذلك أسس الأسرار. أسسها لنأخذ بواسطتها إكليل الظفر ضد الخطيئة. ما نفعله نحن هو إظهار رغبتنا ونيتنا الصالحة في قبولنا المعمودية بإيمان، أما المسيح فلا يعطينا إكليلاً ومجداً نحن المعمدين فقط بل يعطي ذاته مكللاً وغالباً أزلياً. في الواقع عندما نخرج من جرن المعمودية نحمل المسيح في أرواحنا وعيوننا ورؤوسنا. نحمل المسيح البريء من الخطأ وحده، الغريب عن كل فساد، نحمله كما قام تماماً من بين الأموات وظهر إلى تلاميذه وصعد، المسيح الذي سيأتي ليطالبنا بهذا الكنز الذي لا يثمن. المسيح وحده يملك المدخل إلى الحياة الحقيقية. وكما نُدخل الهواء والطعام بواسطة الأعضاء لنقوي جسدنا كذلك، وبالطريقة

نفسها، يدخل المسيح إلى أرواحنا ويصير لها أريجاً وعطراً وغذاءً. إن روحنا تتنشق المسيح وتتغذى به. وهكذا نصبح مع المسيح جسداً واحداً، ويصير المسيح لنا كالرأس لأعضاء الجسد. ولأن المسيح هو رأسنا لذلك نصير شركاء في خيراته. خيرات الرأس توزع على كل الجسد. عندما كان المسيح يكافح ويقبل الجراحات والموت وحيداً لم يشركنا في آلامه. وعندما أراد أن يتوج بإكليل الظفر لم يرد أن يبقى وحده بل دعانا جميعاً لمشاركته في الأكاليل وخيرات الظفر جميعها. وهذا برهان على محبته وإحسانه غير المتناهي لأننا بعد موت الصليب اتحدنا بالمسيح. قبل ضحية السيد لم يكن الاشتراك مع المسيح ممكناً. فالمسيح كان الابن الحبيب وكنا نحن عبيداً خطأة، أعداءً لله، ولكنه عندما مات وأعطى البدل وقضى على أغلال الشيطان نلنا حريتنا وصرنا أبناءَ لله بالنعمة وأعضاء لرأس المسيح المغبوط. والآن إن خيرات الرأس هي خيراتنا وفي هذه الحياة ننعتق من ثقل الخطيئة ونصير مساهمين بكل مواهب المسيح بواسطة الأسرار، ونحيا حياة المسيح بمناولة جسده ودمه وسنكون في الحياة المستقبلة آلهة حول الله وارثين ومالكين مع المسيح. لكي نربح الحياة المستقبلة علينا أن نساهم، أو بالأحرى أن نقبل نعم المسيح وإلا نطرح عن رأسنا إكليله الذي حاكه بالألم والعرق. هذه هي الحياة التي ننالها بالأسرار وللحصول عليها على الإرادة البشرية أن تسهم مساهمة فعّالة.

الأسرار توحدنا بالمسيح

إن الأسرار المقدسة تهب الحياة في المسيح. لقد بحثت هذه الحقيقة آنفاً بحثاً مشدداً. سنبحث الآن كيف يقود كل سر إلى هذه الحياة. فالحياة في المسيح هي وحدتنا به. بأية طريقة توحد الأسرار المؤمنين بالمسيح؟ هذا السؤال يحتاج إلى جواب.

لكي نتحد بالمسيح علينا أن نتألم الألم الذي قاساه. ذاك اخذ دماً وجسداً خاليين من كل خطيئة وألّه الطبيعة البشرية التي لبسها بما انه اله. مات كإنسان وقام من القبر كاله قادر على كل شيء. فمن أراد أن يتحد به عليه أن يتناول جسده وان يشترك في طبيعته الإلهية وموته وقيامته. لذلك نعتمد لنصير شركاء في موت المسيح وقيامته. وبعد المعمودية المقدسة نأخذ المسحة المقدسة لنصير مشاركين في طبيعته الإلهية المقدسة، ونأكل بعد ذلك جسده ونشرب دمه في الكأس المقدسة لنصير شركاء في الجسد الذي اتخذه عندما صار إنساناً وهكذا نتحد بمن تجسد من اجلنا وألّه الطبيعة البشرية ومات وقام.

لماذا لا نتبع الطريق الذي سلكه المسيح بل نبتدئ من حيث انتهى وننتهي من حيث ابتدأ؟ لان المسيح نزل إلى الأرض ليصعدنا إلى السماء، فنزوله صار صعوداً لنا. نزل السلم من السماء إلى الأرض وصارت الدرجة الأخيرة من السلم نقطة بداية لصعودنا نحو السماء. لم يكن بالإمكان غير ما كان لأن المعمودية ولادة والمسحة المقدسة فعل وحركة بالنسبة لنا. أما خبز الحياة وكأس الشكر"فشراب ومأكل حقيقيان" (يوحنا6: 56).

لا يمكن أن يتحرك الإنسان ولا أن يموت قبل أن يولد: فالمعمودية تصالح الإنسان مع الله، والمسحة تعطي مواهب الروح القدس، وسر الشكر يجعل المؤمن يتناول جسد المسيح ودمه، ومن الصعب أن يقف المرء قبل المصالحة حيث يحق لأصدقاء الله أن يقفوا وأن يستأهل المواهب التي تعطي للأصدقاء وأن يتناول صاحب الضمير الشرير جسد المسيح ودمه. لذلك نعتمد أولاً ثم نُمسح لنصبح أنقياء من كل خطيئة، يملؤنا أريج الروح ثم نتقدم إلى المائدة السرية لنتناول الشركة المقدسة.

المعمودية

أن إقتبال المعمودية يعني بالضبط الولادة حسب المسيح، قبول الكيان بالذات، أن نخلق من العدم، ويمكننا أن نعرف ذلك بالعديد من الأدلة. أولاً: من الترتيب الذي تحظى به، أنها تتم أولاً وقبل كل الأسرار وبها يدخل المسيحيون إلى الحياة الجديدة. ثانياً: من الأسماء التي نعطيها لها. ثالثاً: من الطقوس والأناشيد المرعية أثناء إتمامها. الترتيب هو كما يأتي: أولاً الغسل، ثانياً مسحة الميرون،

وأخيراً الوليمة الشكرية. والبرهان القاطع على أن الغسل هو المبدأ والشرط الأولي لهذه الحياة يقدمه السيد نفسه. أن السيد قبل بدئه بعمله الخلاصي وتحمله الآلام من أجلنا قبل المعمودية أولاً. أيمكن أن يكون للألقاب التي نعطيها للمعمودية معان مختلفة: ولادة، إعادة الولادة، إعادة تكوين، الختم، الحمام، اللباس، المسحة، الموهبة، الاستنارة، المعمودية؟ أن كل هذه الألقاب تعني شيئاً واحداً أي الذين يعيشون حسب الله باقتبالهم لهذا السر كشرط أساسي لهذه الحياة، ويبدو لي أن كلمة"ولادة" لا تعني إلا ما تعنيه كلمة" إعادة الولادة"، وكلمة إعادة تكوين لا تعني إلا ما تعنيه" الولادة" و"إعادة الولادة" أي إعادة ولادة أولئك المولودين والمبروئين الذين فقدوا شكلهم فأعادوا شكلهم الأول. حدث ما يحدث مع تمثال مشوه أعاد إليه الفنان شكله الأول. المعمودية هي الفنان الذي أعاد للإنسان شكله وهيئته وطبع صورة في النفس ونحت شكلا وجعلها مطابقة للمسيح بالموت والقيامة. ومن أجل ذلك تسمّى ختماً يدمغنا على صورة الملك وشكله المغبوط. وبما أن الشكل يكتنف المادة ويقضي على عدم شكلها كذلك السر لباساً أو معمودية يعطيها شكلا، وقد أشار الرسول بولس إلى ذلك فأكّد أن المسيح يطبع في أرواح المسيحيين صورته وشكله وكذلك يسترهم بلباس رمزي. وأن المستنيرين حديثاً لبسوا وتعمدوا" يا بنيّ أنتم الذين أتمخض بهم مرة أخرى حتى يُصوَّر فيهم المسيح" (غلاطية 4: 19) وأيضاً: " أنتم الذين خُطت نصب أعينهم صورةُ المسيح المصلوب" (غلاطية 3: 1) ويكتب إلى أهل قورنثية: "أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم المسيح لبستم).

أن الذهب والفضة والنحاس تبقى مادة وتسمّى كذلك ما دامت في حالة الانصهار، ولكنها عندما تتحول إلى أشكال مختلفة تحت ضربات المطرقة لا تبقى مادة خاماً بل مادة ذات شكل فنقول مثلا تمثالاً، حلقه، ديناراً... أسماء لا تستهدف المادة كمادة بل شكلها، وهكذا الحال أيضاً مع اللباس حول الجسد. وقد تكون تسمية اليوم الخلاصي من قبل المسيحيين بيوم التسمية ناتجة عن خلقتنا بالضبط في هذا اليوم وتشكيلنا وحصول النفس على شكل ووجود بعد أن كانت قبلا غامضة ومبهمة وبدون شكل، بالإضافة إلى أننا عرفنا من الذي يعرف خاصته كما يقول بولس الرسول:" عرفنا الله بل عرفنا الله" (غلاطية 4: 9). أن تكون معروفاً يعني أن يعرفك الله، لذلك يعلن داود قائلا عن أولئك الذين لا رابط مشترك يربطهم بهذه الحياة: "أن شفاهي لا تذكر أسماءهم" لأن الذي يبقى بعيداً عن هذا النور يبقى مجهولاً وغير منظور.لا شيء يظهر للعين بدون النور ولا يعرف الله أحداً إذا لم يقتبل خواص المعمودية، والسبب هو عدم وجوده بالنسبة للحقيقة، عدم وضعه في النور بواسطة هذه الشمس. والمقصود من القول: " أن السيد يعرف خاصته، (تيموثاوس11: 19)، المخلص لا يتعرف على العذارى الجاهلات، (متى 25: 13) هو ما ذكرنا.

المعمودية استنارة لأنها تعطي الكيان الحقيقي وتجعلنا معروفين من الله وتقود الإنسان وتبعده عن الظلمة الشريرة وتمنح أيضاً النور، ولهذا سميت حمام النور، لأنها تنير الأنوار في نفوسنا لتبعد كل غيمة من دنس تتوسط بيننا وبين الشعاع الإلهي، وتهد كل حائط متوسط بيننا وبين الله.

المعمودية موهبة لأنها ولادة. من يستطيع أن يحمل فكرة عن ولادته؟ يحدث في الولادة الروحية ما يحدث في الولادة الطبيعية. حتى الإرادة نفسها لو حاولت أن تعرف خيرات العمادة قبل حدوثها لما تمكنت. أن نريد يعني أن نتذكر والتذكر غير أن نريد. القلب البشري لا يمكنه أن يصعد أو أن يفكر قبل أن يمر بالتجربة. عندما نسمع الكلام عن الحرية وعن الملكوت السعيد نفكر بحياة يتصورها العقل البشري مع أن الحياة التي تهبها المعمودية تفوق كل إدراك بشري وكل رغبة من رغباتنا الإنسانية.

يقال عن المعمودية أيضاً أنها مسحة لان الممسوح عنّا، المسيح، ينطبع في من يتمّمها. والختم يعني المسيح المخلّص الذي يختم النفوس، والمسحة الشاملة لكل أقسام الجسد تحدد الهيئة وتبقى كختم أصيل.

مما تقدم يستنتج أن الختم مرادف للولادة، والثياب والتغطيس للختن. ومن ناحية أخرى ما دامت الاستنارة والغسل والموهبة المجانية مرادفة لخلقه وولادة تصبح كل الألقاب التي تعطى للمعمودية واحدة تقود إلى الشيء ذاته، تقود لان نعرف أن هذا الغسل الروحي يجدد الولادة وانه بداية الحياة في المسيح لأرواحنا.

احتفال المعمودية

أولئك الذين قبلوا هذا السر الغالب في وضع يسمح لهم أن يعرفوا أن الكلام والمراسم التي ترافق إتمام السر ترمي إلى هدف واحد وواضح أن المتقدم إلى السر لا يكون قبل اقتبال المعمودية لا مصالحاً مع الله ولا معتقاً من العار القديم. لذلك وقبل المباشر بإتمام السر يضرع متمم السر أن ينعتق المستنير من الشيطان المتسلط عليه. ولا يخاطب متمم السر الله وحده بل ينهال على العاتي موبخاً ويطرده بالسوط جالداً. "والاسم الذي يفوق كل اسم" هو السوط الذي يستعمله.

أنه لفائق العجب أن يصبح الموعوظ في الحياة ابناً ووارثاً بالمعمودية وهو الذي كان قبل لحظات عبداً للشيطان. قد يتمكن أن يبعد الشيطان عن الله من ارتبط بالله. وهذا يعادل الموت الكلي. لذلك ينفخ الكاهن في وجه المتقدم للحصول على الحياة والنفخة ترمز للحياة الحالة من فوق. ثم يكمّل ما تبقى كما يأتي: نرفض الحاضر وكل ما نمسكه بأيدينا ونتجه إلى حقائق جديدة ويشعر الموعوظ بالزحمة لاحتقار العالم وتقدير عالم آخر. يتنكر لحياة ليحتضن أخرى، يهرب من معلم حياة ليفتش بحرارة عن معلم حياة أخرى. وبتنكره للماضي يدل على ما يشعر به وقت دخوله بالنعمة. وبتفضيله لما يقدمه له السر على الماضي يبرهن أنه بالمعمودية يبتدئ بالحياة الجديدة التي تهمنا.

نلبس الوشاح الملوكي ونصعد إلى من كان نقطة انطلاقنا بالطريق التي سلكها آدم في سقوطه إلى الأرض. والتعري يعني أنك تسير إلى النور الحقيقي وأنت لا تحمل شيئاً لأن ظل الموت وكل ما يفسد على النفوس الأشعة الإلهية، كالثياب، حجاب قائم بين النور والأجساد. لا شك أن المسحة بالزيت لها رمز خاص ولكنها تتضمن المعنى الآتي: أنها تذكّر بسلّم يعقوب الذي بعد أن مسحه بالزيت اعترف لرب. تذكر بالملوك والكهنة الذين كانوا يمسحون أمام شعب الله والذين كانوا يعيشون لا لنفوسهم بل من اجل الله ومن اجل المجتمع الذي كانوا يكرسون نفوسهم لخدمته ونحن نتنكر لوجودنا الخاص بنا لكي لا نكون إلا لله هذا ما يعني التعري من الشكل الخاص، أي أن نصبح مطابقين لله.

أن المسحة هذه هي رمز خاص وفي تمام الموافقة مع الاسم" مسيحي" لأننا قد مسحنا والمسيح نفسه هو الذي مسحنا وسكب مسحته الإلهية على البشرية والمسحة هي التي تشركنا به، ومسحة المعمودية ترمز إلى هذه المسحة الإلهية، ومتمم السر يعبر عن ذلك علناً أثناء مسحه للموعوظ بترديده كلمات النبي داود التي تشير إلى المسحة والملكوت الإلهي. يقول الكاهن: " يمسح عبد الله بزيت البهجة" ويرتل داود للمسيح: " الإله الذي مسحك إلهك بزيت الابتهاج ليفضلك على رفاقك"، ويقصد بالرفاق نحن أنفسنا الذين جعلنا المخلص بصلاحه مشاركين له في ملكوته.

حتى الآن لم نقتبل الحياة. كل ما جرى لم يكن إلا رمزاً، توطئة وتقدمة للحياة. ولكن بعد التغطيس الثلاثي يظهر المستنير حديثاً على أنغام الثالوث الكلي القداسة ويدخل تواً إلى ملكية ما يطلبه. يولد، يأتي إلى النهار، كما يقول داود ويأخذ الطابع المقدس ويحوز على كل التسهيلات المرغوبة ويصبح نوراً بعد أن كان ظلمة، وكأس الله يقبله ويتبناه بعد أن كان عدماً، ومن السحق السحيق والعبودية المظلمة ينتقل إلى العرش السماوي.

إن مياه المعمودية تقضي على حياة لتعطي حياة أخرى. تخنق الإنسان العتيق وتقيم الإنسان الجديد. ويتضح هذا تماماً عند الذين خبروها. وبالإضافة فأن السر بحد ذاته يهب ذلك، فالاختفاء في الماء بواسطة التغطيس يعني القضاء على الحياة في الهواء، أي الموت، أما العودة إلى الهواء والنور فيعني العودة إلى الحياة وحقيقة الحصول عليها. لذلك نستدعي هنا الخالق لأنه هو مبدأ الحياة، والحادث حادث استيقاظ على الحياة وخليقة ثانية أسمى من الخليقة السابقة، والصورة تنقش في النفس بصورة أدق من الصورة الأولى، وينحت التمثال على شكل الله بصورة أكثر وضوحاً من الصورة السابقة فيظهر الرسم القديم أنقى وأبهى لذلك لا يستدعي متممو الأسرار اسم الله وحده كواحد من التثليث يشترك فيه التثليث بل يستدعون بكثير من الدقة

والوضوح اسم كل أقنوم من التثليث، وإذا جرى عكس ذلك فالأمر قد يستدعي خللا عقائدياً بسبب الغموض والإبهام.

ومن الأسباب التي تستدعي ذكر كل أقنوم من الأقانيم بوضوح، كل بحد ذاته، ما يأتي: اذا كان

الثالوث قد خلص الجنس البشري بتحننه فأن كل أقنوم من الاقانيم الثلاثة لعب دوراً خاصاً. فالآب قبلَ المصالحة والابن صالح والروح القدس هو الهدية لأصدقاء الله. الآب اعتق والابن كان البدل والروح القدس هو الحرية، " حيث يكون روح الله تكون الحرية" (2 كورنثوس 3 : 17) يقول صوت بولس. الآب يعيد جبلة الحياة، وبالابن أعيدت جبلتنا، أما الروح القدس فهو المحيي. وبما أن الثالوث كان في الخليقة الأولى ظلا فالواحد جبل، واليد كانت الجابلة، أما المعزي روح الحق فكان نفخه معطي الحياة. ولماذا أقول هذا؟ أن الله كان ظلا لولا هذه الخليقة الجديدة. أن الخيرات التي نشرها الله في العالم كثيرة ومع ذلك ليس من صلاح نسب للآب وحده، أو للروح القدس وحده، او للابن وحده بل كل شيء كان مشتركاً بين الاقانيم الثلاثة. أن الثالوث خلق الكل بفضيلة واحدة وحكمة واحدة وعمل واحد، أما في التدبير الخلاصي فالأمر معكوس. لا شك أن الثالوث قد أقام الجنس البشري وأن الثالوث هو الذي أراد خلاصي والذي سبق ورأى وجودنا الا انه لم يعمل مشتركاً فالعمل هنا لا يعود إلى الآب ولا إلى الروح القدس بل إلى الابن فقط.

الابن الوحيد اتخذ وحده جسداً ودماً وعذب وامتهن ومات وقام، وهكذا استعادت البشرية الحياة وصارت المعمودية ولادة جديدة وخليقة جديدة، ويجدر بأولئك الذين أصابوا مغنماً من هذه الخليقة الجديدة حيث ظهر الله في أقانيمه الثلاثة أن يستدعوا الله على هذا الغسل الخلاصي باستدعاء الآب والابن والروح القدس.

لماذا لا نتمم، أثناء المعمودية، التدبير الخلاصي؟ اننا نتمه أن لم يكن بالقول فبالفعل. فالتغطيس الثلاثي والتعويم يمثل ــ كما لا يخفى على أحد ــ الموت الثلاثي الأيام وقيامة المخلص وهما تتمة المخطط الإلهي الخلاصي، وأننا لا نعلن بدون سبب عقيدة التثليث بصوت عال. نفعل ذلك لنعبر بالصمت والأعمال عن تدبير خلاصنا. فالعقيدة تصبح في متناول معرفة الإنسان عن طريق المبشرين بالإنجيل بينما أبصر البشر العمل الخلاصي بأم أعينهم ولمسوه بأصابعهم إذا جاز القول. لذلك نرى يوحنا العارف بازدواجية طبيعة مخلصنا يقول: " الذي كان منذ البدء وما سمعناه"، ثم يقول " ما رأيناه بأم أعيننا وما لمسناه بأيدينا من جهة كلمة الحياة" (1 يوحنا 1: 1). ويكفي أن نؤمن بالعقيدة ونشهد بالكلام بإيماننا به: " فإذا شهدت بلسانك أن يسوع رب، وآمنت بقلبك أن الله أقامه من بين الأموات نلت الخلاص" (رومية 10: 9). في حين أن التدبير الخلاصي يفرض إظهاره وتكراره عملياً. فقد قيل " فأن المسيح تألم من أجلكم وجعل لكم من نفسه قدوة لتقتفوا آثاره"(1بطرس2: 21).

لهذا نعلن، من ناحية، اسم الثالوث بالصوت، ومن ناحية أخرى نعيد بواسطة الماء عملية الآلام والصلب وموت المسيح. وهكذا نطبع في أنفسنا الصورة والشكل الإلهي. ويستنتج مما قيل أن المعمودية، من جميع نواحيها، ألقابها ومراسيمها والأناشيد التي ترافق إتمامها، هي النقطة الجوهرية في الحياة بالمسيح. يبقى علينا أن نعرف ما تقوم عليه هذه الولادة في الحياة.

الولادة بالمعمودية

إننا في المعمودية نطرح وجوداً ونعتاض عنه بوجود آخر. نتنكر لحالة لنربح أخرى. فإذا توصلنا لإيضاح طبيعة هذا التبديل وأتضح لنا الأساس الذي تقوم عليه الحياة بالمسيح فإننا نبلغ الهدف المقصود. أن نقطة الانطلاق فيما نرمي إليه هي الخطيئة والإنسان العتيق، ونقطة الوصول هي البرّ والإنسان الجديد. فلندرس هذا الموضوع بعمق.

الخطيئة خطيئتان، خطيئة تقوم في الأعمال وخطيئة تقوم في حالة العادة. العمل الخاطيء ليس بدائم ولا بمستمر. انه يختفي فور اقترافه ولكنه يترك وراءه جرحاً كالسهم الذي يجتاز زقاً فيخترقه تاركاً وراءه ثقباً. العمل الخاطئ يترك جرحاً في فعلة الشر ليشهد على السقطة وعلى السبب الذي يدين الخاطيء أما عادة الخطيئة للأفعال الشريرة فهي كالمرض الناتج عن حمية فاسدة. أنها تقوم دائماً في النفوس وتقيد النفس بقيود لا يمكن فكها وتستعبد الإدراك وتحول كل شيء إلى شر وتقود فرائسها للأعمال الملتوية التي تولدها كل يوم وتصبح مع التمادي ذات وجود ومولدة كحلقه مستمرة، وهكذا لا يمكن أن تكون نهاية للخطيئة وتتقوى عادة. الخطيئة بتكرار الأعمال وبها تأخذ وجوداً وعملاً خاطئاً

وتكرار الأعمال الخاطئة يقوي عادة الخطيئة كما قلنا، وتصبح العادة خطيئة ملازمة، وهكذا يتطور القلــق الخاطىء باستمرار وتكون النتيجة كما يقول الرسول بولس: "لقد بقيت الخطيئة أما أنا فقد مت" (رومية 7: 9)، مع العلم أن الشر ليس من اليوم ولا من الأمس بل يعود إلى أبينا الأول. إن آدم إذا استسلم للروح الشرير ردّ وجهه عن معلمه الصالح وفقد ميزة الحكم وخسرت روحه صحتها وكيانها الصالح، ومشى الجسد كزوج للروح ولاقى المصير نفسه فتشوه معها كالآلة في يد فنان. النفس المتحدة وثيقاً بالجسد تنقل إليه أهواءها الخاصة. ما البرهان؟ الخجل الذي تشعر به النفس يجعل وجهها أحمر والجسد يرزح تحت ثقل الاهتمامات فيسقط، وبقدر ما تتبع الطبيعة مجراها، والجنس البشري نتاج هذا الجسد الأولي، يكثر ويتضاعف. وينتقل الشر مع المواهب الطبيعية، وكما أن الجسد لم يقع تحت تأثير أهواء النفس فحسب بل نقل إليها أهواءه فأنها، أي النفس، تشعر في الواقع بالفرح والتعب من ناحية ومن ناحية أخرى علينا أن نستنتج أن نفس كل إنسان ترث من آدم الشر الذي ينتقل من النفس إلى الجسد ومن ثم من الأجساد إلى ذريته.

هذا هو الإنسان العتيق الذي أخذ بذار الشر من الجدين الأولين وأخذناه نحن بالولادة. لم نرَ يوماً واحداً خلواً من الخطيئة ولم نستنشق نسمة خالية من المرارة كما يقول النبي داود: "كنا أشراراً منذ ما حبل بنا وضالين ونحن في الأحشاء الوالدية" (مزمور 37: 4)، ولم نقف عند حدود المصير الشقي، حدود الخطيئة الجدية، لم نكتف بما ورثناه من محبة للشرور بل ازددنا شراً وأضفنا على نفوسنا خبثاً حتى فاق شرنا الحاضر الشر الأول وغطاه وصرنا مثالاً شريراً وقدوة سيئة، والأهم أننا لم نصبح فعلة للشرير بل صار الشر فينا يولد شروراً ويزداد باطراد لذلك لا يستطيع الجنس البشري أن يخلص نفسه بنفسه لأنه لم يحاول أن يتمرد على الظلم وهو المطيــة للظلم ولا أن يذوق طعم الحرية التي يحلم بها.

إن المعمودية تحرر من هذه القيود الشريرة ومن هذا المرض والموت، وبسهولة فائقه وبطريقة فورية مليئة وكاملة فلا يبقى لها أثر. أنها لا تعتق من الخبث فحسب بل تعطي العادات المخالفة. فالله نفسه الذي مات من أجلنا أعطانا سلطاناً لقتل الخطيئة، وبصعوده جعلنا ورثة الحياة الأبدية الجديدة. أما موته بحد ذاته فقد قتل الحياة الشريرة وحلّ خطايانا ككفارة.

بهذه الطريقة يحررنا الغسل من العادة والأفعال الخاطئة كلها ويظهرنا أنقياء ويجعلنا مشاركين في موت يسوع المحيي. وبما أننا نشترك بالمعمودية في قيامة المسيح فالمسيح ينقل إلينا حياة جديدة ويزودنا بإمكانات وقوى تتناسب مع هذه الحياة، لذلك تحررت من جرائري وامتلكت الصحة فوراً لان العمل هو عمل الله والله لا يحتاج إلى الزمن ولا يفعل الخير للمرة الأولى مع الجنس البشرى لكي يحتاج إلى الوقت. إن الله يفعل ذلك أزلياً. انه لا يكفر عن خطايانا في هذا اليوم فقط ولا يعطينا الدواء لأعضائنا ولا ينقل قوى وأفعالاً اليوم واليوم فقط، لقد فعل ذلك في الماضي لكن عندما ارتفع على الصليب ومات وقام أعطيت في هذا اليوم الحرية والشكل والجمال والأعضاء والعلامات الجديدة للإنسان.

علينا أن نسرع الآن ونتقدم إلى النعم الإلهية. المعمودية تعطينا هذه النعم. تعيد الأموات إلى الحياة والأسرى إلى الحرية والساقطين إلى عالم فوق الطبيعة، لقد دفع البدل وصار الوقت وقت انعتاق. لقد انتشر الأريج وملأت رائحته العطرة كل شيء ولم يعد علينا إلا أن نتنشقه. المخلص وهبنا قوة التنشق والاستنارة والتحرر. لم ينشر المخلص الأريج ولم يهب النور بمجيئه فحسب بل خلق حاسة النظر والشم. فالغسل الخلاصي يتعهد الآن المواهب والحواس عند المستنير حديثاً. ننزل إلى الماء كمادة لا شكل لنا لنأخذ شكلاً كله جمال. وتبتدئ تفجرات الخيرات من هذه اللحظة. الوليمة حاضرة والثيران والحيوانات المسمنة قد ذبحت "كل شيء قد اعد فهلموا إلي العرس" (متى 22: 4) اينقص العيد غير الذين رفضوا قبول الدعوة؟ وإذا قبلوها فأي شيء يعكر سعادتهم؟ لا شيء.

المفروض أن نكون على تمام الاستعداد للمثول أمام المسيح في الحياة المــستقبلة وعلينــا أن نكــون مستعدين أيضاً لنتقدم من الوليمة. يكفي أن نتقدم لنحصل علــى كــل شــيء، ولا مجــال للعــذارى الجاهلات في الوليمة. المشوهون مدعوون لوليمة الفرح. لا يمكن للميــت أن يحيــا ولا للأعمــى أن يبصر ولا للأبرص أن يشفى إذا لم يلب الدعوة إلى الوليمة الملوكية. يكفي أن تكون لنا إرادة حــسنة ويقظة روحية على الأرض وكل ما تبقى يأتي " أتيت إلى العالم لتكون لهم حياة" " أنــا أتيــت نــوراً للعالم، (يوحنا 10: 10) (يو3: 19) وهذا كله من ينابيع رحمته.

لقد ترك الله لنا بالرغم من كل عطاياه الغزيرة من اجل خلاصنا شيئاً نسهم به في خلاصنا الشخصي. نعم أن المساهمة إذا قيست بغنى العطايا تعد ضئيلة جداً ولكن لهذه المساهمة وزن في إرادة الله. يكفي أن نعتقد بخلاصنا بواسطة المعمودية وان نوافق باختيارنا ان نتقدم إليها حتى تعطي لنا كل الاستحقاقات وهكذا يصبح الواهب مديناً بالخيرات التي فعلها من اجلنا. إن إيماننا بأننا إذا متنا بعد المعمودية فوراً فأننا لن نحمل غير طابع المعمودية لأكثر من حقيقة وسيخصّنا الله بالكليل كأننا قمنا بالجهاد من اجل الملكوت السماوي.

بما أن المعمودية تهب الحياة للمستنيرين فلنبحث طبيعة هذه الحياة. يمكن أن نجزم مسبقاً أن هذه الحياة ليست مماثلة للحياة الأولى ومطابقة لطبيعتنا بل أسمى لأنه ماذا ينفع الموت إذا كان لا ينتهي إلا بالحياة الأولى، أو إذا كانت الحياة الجديدة لا تحملنا إلى أعمال جديدة؟ إن هذا لا يعني غير الموت. إن هذه الحياة ليست بحياة ملائكية لأنه لا جامع يجمعنا بالملائكة. إن الإنسان هو الذي سقط وإذا أصبح الإنسان ملاكاً لا يعني هذا إنه قام. إن هذه الحالة تشبه تمثالاً محطماً لا يعيده الفنان إلى شكله البرونزي الأول بل يعطيه شكلاً آخر وهذا يعني انك تخلق شيئاً آخر لا أن تعيد شكل التمثال من جديد. من الضروري أن تكون هذه الحياة بشرية وفي الوقت نفسه جديدة وأسمى من الأولى وكل هذه الصفات تلتقي في الحياة التي جاء بها يسوع المسيح.

لا شيء يربط هذه الحياة الجديدة بالإنسان العتيق. أنها أسمى بكثير مما يتصوره العقل والإدراك، وخاصة بالطبيعة الإلهية. أنها مطابقة لطبيعتنا لأنها كانت حياة إنسان عاشها، والإنسان هذا كان إنساناً حقيقياً كما كان في الوقت نفسه إلهاً حقيقياً خلواً من كل خطيئة حتى في طبيعته البشرية. لأجل ذلك يجب أن تشرق فينا الحياة بالمسيح المعطاة لنا بالمعمودية المقدسة التي تجعلنا أتقياء بمياهها المقدسة، طاهرين من كل دنس الخطيئة. ويتضح ذلك مما يأتي: الولادة بالمعمودية بدء الحياة المستقبلة وتكييف الأعضاء الجديدة والحواس، أنها تهيئة للحياة المستقبلة ولا سبيل للتهيئة إلى الحياة الأخرى إلا بإقتبال سر المعمودية للحياة في المسيح " آب الدهر الآتي" (أشعياء 9: 6). أنها تنقل إلى البشر حياة الخلود التي قادها آدم إلى الموت. وكما أننا نستطيع أن نحيا الحياة الطبيعية إذا كنا غير مزودين بالحواس الآدمية وبالقوى الحيوانية كذلك لا يمكننا أن ندخل أحياء إلى العالم المغبوط بدون أن نكون قد تهيأنا بحياة المسيح وتطابقنا معه في الصورة والمثال.

لماذا يجب أن يقوم الموتى غير المعمدين؟

المعمودية ولادة من نوع آخر. المسيح يلدنا ونحن الذين ولدنا. فمن يلد يعطي الحياة لمن ولده. واليك ما يثير العجب لا يقوم فقط المعمدون بل الذين لم يتمكنوا أن يستعدوا للحياة الخالدة بقوة الأسرار يقومون في الحياة الأخرى بأجسادهم غير الفانية. من العجيب أن يشترك في القيامة التي حملها موت المخلص إلى العالم الذين لم يقبلوا سرّ المعمودية التي بها نشترك بموته المحيي. إذا كانوا قد هربوا من الطبيب ورفضوا مساعدته وامتنعوا عن الدواء الوحيد فما هو سبب خلودهم يا ترى؟ أعتقد إن هناك اعتبارين، إمّا إن يتمتع الجميع بالتساوي بالخيرات التي أعطاها المسيح للبشر بموته فنقوم ونحيا ونملك معه ونحوز على الغبطة، هذا إذا كان لا يطلب منّا شيئاً، وإمّا لا يقوم إلاّ الذين يؤمنون بالمخلص على أساس أن القيامة تفرض علينا مساهمة شخصية.

إليك الجواب. إن القيامة هي ترميم الطبيعة. إنها موهبة مجانية من الله، وكما أنه خلقنا بدون إرادتنا فيقيمنا بدون مساهمتنا. أما ذلك الملكوت، إما رؤية الله وأن نكون مع المسيح، هذه المتعة للنفس للذين يحبونه ويشتاقونه، فالله يحتفظ بها للذين أرادوه واشتاقوه. أما الذين لم يشتاقوه ولم يريدوه فكيف يمكنهم أن يروه أو يتحدوا به ويتمتعوا بجماله كما يقول السيد: "لا يستطيع العالم أن يتلقاه لأنه لا يراه ولا يعرفه" (يوحنا 14: 17). في الواقع لقد ذهبوا إلى الحياة الأخرى عميان النظر والروح محرومين من معرفة المخلص ومحبته ومن إرادة وقدرة الاتحاد به، فلا نعجبن إذا كان الكل خالدين وإذا كان الكل لا يتمتعون بالغبطة. الجميع يتمتعون بطبيعة العناية الإلهية ولكن المكافأة لا تمنح إلا للمؤمنين خدام الله، والسبب هو أن الله يريد خلاص الجميع ويتمنى الخير للكل ويعطي الكل

بالسواء ما يقوي الإرادة ويقوّم الطبيعة ولا مجال لرفض خيرات الله التي يمنحها لنا ونقبلها بالرغم عنا. أن الله يفعل الخير قسراً عنا مدفوعاً بكثرة رحمته ويضغط برحمته الحنونة علينا حتى لا نستطيع ولو أردنا أن نرفض خيراته. هذا ينطبق على ما تتميز به القيامة. ليس في استطاعتنا أن نولد وألا نولد، أن نقوم وألا نقوم بعد الموت. أما ما يتعلق بما هو ضمن الإرادة فمن المعروف أن اختيار الصالح ومغفرة الخطايا واستقامة العادات ونقاوة الروح والغبطة فهي مكافأة للإرادة وبالإرادة يتعلق تحقيق هذه الفضائل أو بعض أقسامها. المكافأة على قدر العمل. أما إذا كنا لا نريد، إذا كنا لا نقبل بإرادتنا أية إيحاءات فهل نستطيع أن نطالب بالمكافأة.

أما الجواب الثاني أن المخلص بحد ذاته وبصيرورته بكر الخليقة بين الأموات اقتلع الطبيعة من الفساد، وبدخوله إلى قدس الأقداس كسابق لنا حرر النفس من الخطيئة بعد أن قضى عليها وصالح الإنسان مع الله وهدم الحائط الفاصل وقدس ذاته من أجلنا حتى نكون مقدسين فعلاً فمن الواضح إذا أن الذين يشتركون بطبيعته وإرادته هم الذين يُخلّصون من الخطيئة والفساد كأناس اشتركوا بطبيعته وإرادته وأطاعوا أوامره بإرادتهم لما يريده. الجواب الأول ينطبق على غير المعمدين. الواقع أن الطبيعة البشرية واحدة عند المعمدين وغير المعمدين، وهذا لا يقال عن رجاء الخلاص بالمخلص ولا عن وحدة القلب والروح معه. وبالنتيجة يحرم غير المعمدين من مغفرة الخطايا ومن إكليل البر لأنهم بإرادتهم ابتعدوا عن المسيح، ولا تتعارض مع هذا قيامة هؤلاء بالجسد لأنهم يملكون طبيعة تشترك بطبيعة المسيح البشرية عدا حرماتهم من الحياة المغبوطة كما قيل. المعمودية بالفعل لا تهب غير الحياة السعيدة لا الحياة الحاضرة، وموت المسيح وقيامته لم يهبانا غير الحياة الخالدة لذلك تمنح القيامة الموهبة المجانية لكل البشر أما مغفرة الخطايا، الإكليل السماوي والملكوت، فهي من حق الذين يساهمون من هنا ويمتثلون لمتطلبات هذه الحياة، لمتطلبات الختن السماوي، من حق الذين يولدون من جديد، من أجل آدم الجديد والذين يشعون النعمة، بالشعاع الذي نشرته المعمودية فيهم، لأنّ المسيح "هو أجمل مواليد البشر" (مزمور 44: 3)، أولئك الذين يرفعون جباههم عالية كظافرين في الألعاب الاولمبية لأن المسيح هو الإكليل ويصيحون بأسماعهم لأنه هو الكلمة، ويحدقون بأبصارهم إلى العلو لأنه الشمس، ويتنفسون لأنه الأريج" أريج متضوع" (نشيد1: 3)، ويلبسون لباساً بدون دنس بسبب أعراس هذا الختن.

من هذا البحث ننساق إلى بحث آخر لا نستطيع أن نمر به مروراً عابراً. إذا كان قبول المعمودية يتطلب منا بالفعل أن نريد وأن نؤمن بهذا السر لنحصل على النعم، وإذا كان إهمال هذا الواجب المثلث واجب المعمودية وواجب الإرادة للمعمودية وواجب الإيمان بها يعني الحرمان من الغبطة فما هو وضع المؤمن الذي تنكر للمعمودية بعد قبوله لها؟ تنكر لإيمانه الأول ونكر المسيح ثم عاد بالتوبة إلى الكنيسة.

من الطبيعي أن نقودهم إلى مجاري المعمودية، أن نجدد معموديتهم كأرواح مجردة من كل شيء أما الكنيسة فتطلب مسحهم تدبيراً بالزيت ولا تطلب أكثر من ذلك ثم تقبلهم في إعداد المؤمنين. ماذا يمكننا أن نستنتج من ذلك؟ أيستنتج غير الشرطين للدخول في علاقة مع الله؟ أن الشر يحقق هذين الشرطين. الجاحدين يخسرون الشرط الواحد، معرفة استعمال البصر، رؤية النور، ويحتفظون بالشرط الآخر، إمكانية قابلية النظر والسبب هو أن استعمال العضو اختياري. يعود إلينا أمر التفتيش عن الشمس وأطباق عيوننا عن النور. أما أن نقلع هذه ونقضي على هذا العضو نهائياً، فهذا ليس من صلاحيتنا إطلاقاً.إذا كنا لا نستطيع أن نحذف عضواً من الأعضاء التي منحتنا إياه الطبيعة فإننا لا نستطيع على الأقل أن نفعل ذلك بالعضو الذي أعطانا إياه الله بذاته عندما خلقنا. وبما أن الله خلق قوة التفكير فينا وكل الأفكار الناتجة عن طبيعتنا الروحية، لا فرق إن سُمّيت قوى روحية أو أي شيء تتأثر به النفس ويدفعها إلى المعمودية لينقيها فتتقاد إلى الله دون ضغط، ولا شيء يضغط على الإرادة البشرية حتى ولا الله، والله لا يسحب مواهبه " فلا رجعة في هبات الله ودعوته" (رومية 11: 29). ويريد خيرنا ككلي الصلاح، وصلاحه لا نهاية له، ويهبنا خيراته بدون أن يسلب إرادتنا حرية الحق في العمل. هذا فعل المعمودية وخيراتها.

إن فضيلة المعمودية لا تضغط على الإرادة ولا تستعبدها بل تكتفي بدورها كفضيلة ولا تمنع قط أن يبقى الذين هم تحت تأثيرها أشراراً. العين الصحيحة تبقى في حالة النظر حتى ولو كانت بين أطباق الظلمات كذلك الشاهد المؤمن الذي يترك نفسه بين أيدي الكفر والغواية بعد إقتباله لسرّ المعمودية

والنعم الإلهية. لذلك لا يعيد الكاهن معمودية الذين لا يحتاجون على أساس أنهم لم يطرحوا كل القوى التي قبلوها بالخليقة الثانية. يلجأ الكاهن إلى مسحة بسيطة لينقل إليهم نعمة الطاعة وخوف الله والمحبة التي تعيد إليهم أماناتهم السابقة. يكفي ما ذكرناه حول هذا الموضوع.

حالة النفس المعمدة وحياتها

يتضح مما تقدم أن الذين يحيون حياة المسيح هم الذين تنقوا بالمعمودية واشتركوا بحياة المسيح. كيف يحدث ذلك؟ انه لأمر يفوق العقل البشري. إنها قوة الحياة المستقبلة وتهيئة لها، كما يقول الرسول بولس (عبرانيين 6: 5)، وكما أننا لا نستطيع أن نفهم وظيفة العين إلا بالنور ولا أن نفهم من هم في اليقظة إلا إذا كنا كذلك من الصعب أن نعرف من هنا طبيعة وكمال القوى الجديدة المخصصة لمساعدتنا في الوصول إلى الحياة المستقبلة لأننا نفتقد إلى نقطة المقارنة وإلى النور الخاص.

لاشك أننا أعضاء المسيح، وهنا يقوم فعل المعمودية، ولكن جمال الأعضاء وتناسقها هما من فعل الرأس، فلو فصلت الأعضاء عن الرأس لخسرت كل رونقها. إن رأس هذه الأعضاء لا يقع في الوقت الحاضر تحت أبصارنا، وسنراه في الحياة المستقبلة، عندئذ سترسل الأعضاء أنواراً باتحادها مع المسيح. يقول الرسول بولس "لأنكم قد متم وحياتكم محتجبة مع المسيح في الله. فإذا ظهر المسيح الذي هو حياتكم. تظهرون أنتم أيضاً عندئذ معه في المجد" (كور 3:3– 4) ويقول القديس يوحنا "لم يحدد بعد من نحن ولكن عندما يظهر المسيح سنجد أنفسنا مشابهين له" (يوحنا 31: 2).

لهذه الأسباب لا يمكن في الوقت الحاضر أن نفهم طبيعة الحياة. حتى ولا القديسون يستطيعون ذلك وأكثرهم بعجزه، وأنهم يعرفون رمزياً كما في مرآة ولا يستطيعون أن يعبروا بالكلام حتى عن الشيء الذي يعرفونه. إنهم يدركونه شعورياً ويعرفونه بقلوبهم النقية ولكنهم لا يستطيعون أن يجدوا التعبير الخاص لهذه الحالة من المعرفة الإلهية.هذه الحالة تدخل في نطاق العجيبة التي شاهدها بولس في الفردوس عندما اختطف إلى السماء الثالثة (2 كورنثوس 12: 4) وما يمكن أن يعرف ويقال عن هذه الحياة لتخليصه من الطبائع الجديدة للمعمدين، والأعمال الفريدة التي قاموا بها، ومن الفضائل الطبيعة التي تقلبت على الشرائع البشرية، والتي لا يمكننا أن ننسبها لا إلى العلم، ولا إلى المجهودات الشخصية، ولا إلى السلالة ولا إلى أي شيء بشري آخر. أن روحهم جابهت بحماس شروراً تفوق الخيال. الجسد لم يطفئ رغبته ولكنه تحمل كل العذابات التي إرادتها النفس ومع أن قوة النفس والاحتمال الجسدي ليسا بدون حدود فلا الجسد ولا الروح يستطيعان أن يقاوما بعض الشرور. لكن هناك شروراً في الجسد تتمكن النفس من التغلب عليها بما فيها من نعم. وفي هذه الحالة تحلق النفس وينحل عزم الجسد. أما أرواح أولئك المغبطين وأجسادهم فلا يقف شيء في سبيلها. ضحوا بكل شيء، تحملوا كل العذابات التي لا يمكن للخيال أن يتصورها ويخترعها، تألموا حاملين آلامهم بصبر، أو بالأحرى أنهم ما تحملوا وما تألموا بل احتقروا الحياة لا حباً بمكافأة عظيمة من اجل أكثر سعادة ولم تدفعهم الشجاعة لتحمل كل هذا عن رضى. لم يدفعهم لا العقل ولا الإدراك. أنهم ليسوا كالمرضى الذين يقبلون الكي أو يسلمون أنفسهم لمبضع الجراح مضطرين، أنهم وهذا هو الجديد في هذه الحياة، أحبوا الجراح وكانوا يحترقون من الألم ويتوقون إلى الموت بدون أية نية مسبقة. كان البعض يطلبون العذابات والموت والبعض الآخر يتحملون تقطيع الأوصال وكلما صادفوا عذاباً ازدادوا حماساً والبعض يطلبون الحياة محرومين من نعمة العيش. كانوا يحنون إلى الموت حنين الجائع للقمة العيش. كان الجسد يحن إلى ذلك وكان يقدم معونته مكافحاً ضد مقوماته الخاصة. لم تكن القضية قضية شخص أو شخصين أو عشرين من المسيحيين، لم يكن العمل عمل شخص وأشخاص بلغوا من العمر مبلغاً، بل جموع من المؤمنين لا حد له ومن مختلف الأعمار. هؤلاء هم الشهداء الذين يشرفون بحثنا بصورة خاصة. أنهم يعلنون إيمانهم بالمسيح بدون خوف أمام مضطهديهم. لا فرق أن كانوا من صف المؤمنين قبل الاضطهادات أو من الذين قبلوا هذه الحياة أثناءها. هؤلاء كانوا يعترفون باسمه ويطلبون الموت بصوت واحد نساءً ورجالاً وشباباً وشابات من كل الصفوف والطبقات والأوضاع الاجتماعية ويحنون رقابهم للجلاد من اجل الحصول على شيء

كانوا يبصرونه أمام أعينهم.
لقد قلت "في كل الأوضاع الاجتماعية" وتستحق هذه الأوضاع الشرح وليست من الأمور التي يجوز إهمالها. من يقف في وجه الصراعات ويتحمل العذابات لا يمكن أن يكون رجلاً عادياً يحيا حياة تافهة. ومن كانت حياته رخوة واعتادها لا يقارن بمن يحيا بعرق الجبين. لا يمكن لابن القصر أن ينظر إلى الجلجلة كما ينظر إليها الجندي. كلاهما ينظر نظرة مختلفة أما الشهداء فلا شيء يقلص اندفاعهم. لا شيء يمنعهم من الوصول جميعاً إلى قمة الحكمة لأن الفضيلة الواحدة قد خلقتهم وكوّنتهم فوصلوا جميعاً إلى أسمى درجات الفضيلة. لقد خبروا الحياة فأحبوا الخير الأسمى أكثر مما هو مطلوب من الطبيعة. لم يفكروا بوجودهم وكل ذلك من أجل المسيح. لقد تغير الكثير من الرجال المنحلين خلقياً، ممثلين وغيرهم، بقبولهم لكلام خلاصنا فخلقوا من جديد والتزموا المنال الكامل عن رضى وعملوا على تغيير أقنعتهم.
حدث أن دخل إلى هذه الجوقة من الشهداء عدد من الأتباع غير المعمدين. لم تتمكن الكنيسة من تغطيسهم في مياه المعمودية فأعطاهم ختن الكنيسة المعمودية بنفسه. نزلت غيمة من السماء على الكثيرين منهم أو تفجرت الأرض مياهاً ليتمكن هؤلاء من إقتبال المعمودية، ولكن أكثرهم ولد بصورة غير منظورة لأنه إذا كان بعض أعضاء الكنيسة كبولس أو غيره يضرعون للمسيح فالأولى أن يكون رأس الكنيسة الذي يستجيب لتضرعات الأعضاء أن يكمل ما ينقص الأعضاء. لنعد إلى الموضوع.
مِنْ سِقط القول أن نعتبر هذه الفضيلة التي أقدم الشهداء عليها بمثل هذه الشجاعة وركضوا بمثل هذه السرعة وانتهوا إلى مثل هذه النهاية الحسنة التي حملوها على عاتقهم بحماس، فضيلة نابعة من فوق. هذه الأفعال كلها من نتاج النعمة. كيف تستطيع المعمودية أن تنتج هذه الأفعال؟
كيف تجعل المعمودية البشر أهلاً لأعمال بطولية؟
من الواضح أن الذين قدموا مثل هذا المشهد الذي لا مثيل له هم الذين جُرحّوا بمحبة المسيح وتعذبت قلوبهم بالجهادات والتضحيات الحبية.
ما هو مبدأ هذه المحبة وسببها؟ تحت أي تأثير صاروا جديرين بمثل هذا الحب؟ من نقل إليهم هذه الشعلة؟ هذا ما سنحاول شرحه.
المعرفة تولد الحب وهذا يولد تلك. لا يمكن أن ننقاد إلى محبة شيء قبل أن نعرفه ونعرف جماله. وبما أن هذه المعرفة تكون أحياناً كاملة وأحياناً ناقصة كذلك المحبة. وعندما نعرف معرفة تامة ما هو الجميل والصالح فأننا نحب هذا الشيء على قدر ما يستحق من معرفتنا. معرفة ناقصة تعني محبة ناقصة.
أن المعمودية تحمل إلى المستنيرين نوعاً من الإدراك لذلك أدرك المستنيرون الله بوضوح، رأوا جماله وإشعاعاته واندهلوا به وذاقوه. أنهم عملياً اكتسبوا معرفة لا تحققها المعرفة العلمية.
هناك سبيلان للمعرفة، المعرفة بواسطة المعلم والمعرفة عن طريق الاختيار الذاتي. إن تعليم الآخرين لا يدنينا من الفوضى مهما قُدمت الأمثلة. بهذه الطريقة نتخيل الشيء ونتمثل به ولكنّا لا نلمسه بذاته ولا يمكن أن نجد بين الأشياء أمثلة كفيلة بجعل غرض إيماننا ملموساً مهما استعملنا من الأمثلة ومهما حاولنا، أما المعرفة بالخبرة الشخصية فإنها تقود إلى ما نريد فوراً وهكذا وفي مثل هذه الحالة ينطبع الغرض في النفس التواقة إليه ويوقظ انعكاسه الشوق المتبادل.
في الطريقة الأولى للمعرفة يتسلل شكل الشيء إلينا ولا نحوز من جراء ذلك إلا على فكرة مبهمة باهتة، ورغبتنا في هذا الشيء تقاس بالنسبة لما نملكه من معرفة عنه، ومحبتنا تكون على مستوى معرفتنا فإذا كانت ناقصة وكلما اكتملت المعرفة اكتملت المحبة مع العلم أن للأشياء تأثيرها على المعرفة وبالنتيجة على المحبة. فإذا كانت محبتنا ليسوع المسيح لا تثير فينا أية مبادرة جديدة وفائقة الطبيعة فإنها برهان على معرفتنا له بالواسطة. أمن الممكن أن نعرف من لا شبيه له بالواسطة، وليس في الكون ما يشبهه أو ما يمكنه أن يكون مثالاً له، وهو الذي لا شبه له في كل الكائنات؟ كيف نعرف جماله لنحبه محبة تتفق مع جماله؟
أولئك الذين شعروا نحوه بمحبة تفوق كل خيال، تفوق قوى الطبيعة، وأخذوا على عاتقهم تحقيق أفعال تفوق حدّ التصور، هؤلاء قد جرحهم الختن الإلهي شـــخصياً. أراهم بشخـــصه انعكـــاس جمالـــه. إن عمق الجرح وطوله يشهدان عن مضاء السهم، وحرارة الشوق تدل على موحيها.
أن سمو العهد الجديد على العهد العتيق يقوم على هذا الأساس. كان العهد العتيق مدرسة لتعليم البشر

أما العهد الجديد فالمسيح هو الحاضر، المسيح هو الذي يهيئ النفوس ويشكلها بطريقة فائقة الوصف وذلك لأن البشر كانوا عاجزين عن الوصول إلى الهدف المنشود عن طريق التعليم والتثقيف. لو كانت المواعظ تكفي لما احتجنا إلى أعمال فائقة الطبيعة ولا إلى إله متجسد، مصلوب، ميت.
هذه الحقيقة تشع منذ بدء المسيحية عند آبائنا في الإيمان وفي أشخاص الرسل. لم يبرهن الرسل عن شيء خارق بالرغم من امتلاكهم لتعليم المخلص، بالرغم من سماعهم له بالذات، بالرغم من رؤيتهم للحوادث بأم أعينهم، بالرغم من كل الخيرات التي سكبها، بالرغم من آلامه وموته وقيامته وصعوده. لم يبرهن الرسل عن شيء خارق فائق الطبيعة، شيء يسمو على الأعمال التي كانوا يفعلونها إلا بعد أن اعتمدوا، عندما قبلوا المعمودية، عندما انسكب الروح القدس في نفوسهم وصاروا رجالاً جديرين، تحركهم حياة جديدة، خلقوا داخلياً فأشعلوا شعلة المسيح في نفوسهم وفي الآخرين ومع أنهم كانوا بالقرب من الشمس، اشتركوا في حياته وكلامه فأنهم يفتقرون إلى الأشعة لأنهم لم يتعمدوا. وكمّل الله القديسين بالطريقة نفسها فعرفوه وأحبوه واضطرموا لا بالكلام البسيط بل بفضيلة المعمودية وتكونوا وأخذوا هيئة المحبوب" الذي يقتلع قلباً من الحجارة ليعوض بقلب من لحم" (مزمور 11: 19)، والذي حفر" لا على ألواح حجرية بل على ألواح من لحم" (حزقيال 11: 19) ولا يحفر شريعته عليها فقط بل الواضع للشريعة ذاته. وقد أكّد هذه الحقائق عدد كبير من القديسين الذين لم يتمكنوا من معرفة الحق بالكلام ولا فهموه عن طريق العجائب ولا عن طريق قوة من أعلن عنه، بل صاروا قديسين كاملين بالمعمودية. فالمغبوط بورفيريوس الشاهد لكل البشارات والانتصارات والعجائب والمرسلين من أجل الإنجيل ولعصر كان فيه ناموس المسيح مسيطراً وصوت الرسل مسموعاً في أرجاء المسكونة حيث رفعت رايات الشهداء الذين قدموا حياتهم من أجل المسيح، يتابع بإصرار طريق ضلاله ويضع الكذب فوق الحقيقة ولكنه عندما اعتمد، ولم يعتمد عن إيمان بل هزءاً وسخرية ليضحك المتفرجين، تحول داخلياً. كانت مهنة بورفيريوس التهريج وقد تجسر وهو على المسرح أن يقلد العماد وعندما غطس في الماء واستدعى الثالوث القدوس آثار ضحك المتفرجين. أما ما حدث داخل بورفيريوس فلم يكن مشهداً من مشاهد المسرحية بل مشهداً من مشاهد الإيمان الخلاق. كان ولادة جديدة، السر بذاته، اكتسب المهرج روح شهيد، جسداً لا يرتجف كأنه خصّص من قبل للفضيلة والجهاد. اكتسب لساناً لا يثير الضحك بل ثورة عاتية. انقلبت حياة المهرج وصار مطيعاً ومتفانياً كم أجل المسيح. مات وسط عذابات كثيرة والفرح يغمره. لم يخن المحبوب بكلمة واحدة تفلت من اللسان.
عرف القديس جلاسيوس المسيح فأحبه في الظروف نفسها. يظهر أنه تقدم إليه خصمٌ فسمل عينيه وعندما رأى المضطهَّد وبهاءه أصيب بانجذاب نحو هذا الجمال الخارق فغير مشاعره وعدوانه وأفسح المجال للمحبة المسيحية. هذه المحبة تملك كل صفات العدوى لأن الذين يُتخذون بالمسيح يُحملون فعلياً إلى ما وراء حدود الطبيعـــة "كثيـــرون سيحملهم عجب رؤيتك" (اشعيا 32: 14).
أن اردليون الشجاع تعمد النيل من المعمودية فبدلاً من أن يقدم فصلاً هزيلاً جعل مراسم العماد فصلاً أثار فيه هزء المتفرجين. كان أردليون مهرجاً وقد مثّل معمودية فعلية وتحمّل الآلام التي تحملها المخلص. واعتمد فعلياً ومثل شهادة الشهداء وقد علق بالفعل على خشبة بواسطة ممثلين. وبعد أن أنهى دوره الفعلي اعترف بإيمانه بالمسيح وشعر بالجراح وتحول فوراً، وصارت نفسه في وحدة مع كلامه وعواطفه في تناسق مع أعماله. لقد صار ما يجب أن يكونه، صار مسيحياً، هذه هي نتائج الجراح الصناعية واللسان المستعار. لقد انتهى بمحبة المسيح لأنه قال أنه يحب المسيح. حلّ الحب محلّ النار ودخل من الفم إلى القلب. الخير حسب المألوف يغمر القلب بغزارة ومن خير القلب يفيض اللسان لقد حدث مع اردليون العكس انسكب الشلال من لسانه ففاض قلبه بالحب.
يا لقوة المسيح التي لا توصف. لقد احتل المسيح اردليون. احتله بدون أن يحسن إليه، بدون أن يلوح بالإكليل، بدون أن يجذبه بمغريات الآمال العذاب. استولى عليه والصقه به منذ اللحظة التي رآه فيها شبيهاً له في الجراحات والعذابات. لقد جعله يقبل بحقائق كانت تثير فيه الحقد والكراهية. اقتلعه من عاداته المزمنة وأعاده إلى مشاعره فصار أفضل أتباعه بعد أن كان أكثر الناس انحرافاً وانحلالاً.
(أهناك ما هو أحقر من مهرج؟ أهناك ما هو احكم من شهيد؟) وأي علاقة بين الاثنين؟
ما هو المنطق الطبيعي حتى تولد الجراحات والعذابات المحبة؟ كيف تحول الوثني إلى رجل مسيحي عن طريق مسلك يبعد ولا يقرب إلى المسيحية لوعورة مسلكها. أيمكن أن توحي المسيحية عذابات

قاسية، أيمكن أن ترد عدواً ومضطهداً يكره المسيحية كرهاً شديداً وتجعله صديقاً وتلميذاً؟
من الواضح أن الكلام لم يكن له أي تأثير. كان كل ذلك من فعل المعمودية. لاشك أن ارداليون كان قد سمع بإعلان البشارة الخلاصية وكان شاهداً للعجائب لأن عدداً كبيراً من الشهداء كانوا قد استشهدوا من اجل إيمانهم وكان ارداليون قد عرف ذلك. استمر ارداليون في غوايته وبقي عدواً للنور حتى اعتمد، أي حتى قبوله لجراحات المسيح وجهره بالإيمان الحقيقي. هذا هو من فعل المعمودية، والمعمودية هي التشبه بالمسيح والشهادة له أمام بيلاطس والثبات في وجه الصليب والموت. ومن هذه الناحية نستطيع أن نتشبه بالمسيح عن طريق هذه الصور والأسرار وإعلان إيماننا به ساعة الخطر.كثيرون هم الذين فتشوا خلال العصور عن الدواء للشرور البشرية ولكن موت المسيح وحده رد لنا الحياة والصحة، لذلك إذا أردنا أن نولد هذه الولادة الجديدة وأن نعيش من هذه الحياة المغبطة ونتهيأ لاستعادة الصحة فما علينا إلا أن نتناول هذا الدواء المقدم لنا من المسيح، وعلى قدر ما يستطيع الإنسان أن يقدم شهادة عن إيمانه ويقبل الآلام ويذوق الموت. هذه فضيلة الشريعة الجديدة وهكذا يولد الإنسان كاملاً ويصل إلى الحكمة الخارقة. هكذا يولد المسيحي وينهمك بالأعمال الكاملة ويبقى ثابتاً في إيمانه مخلصاً له راضياً به ينظم عادته لا بقوة الإقناع ولا بلجام الناموس ولكن بقوة الله ناقلاً بإيمانه وفضيلته صورته الإلهية "لأن الملكوت يكافيء الأعمال لا الكلام" (1كورنثوس 4: 20)"وعقيدة الصلب للمختارين قوة إلهية" (1كورنثوس 1: 18).

المعمودية وناموس المحبة

هذا الناموس روحي لان الروح يفعل كل شيء ويقوم بكل شيء، أما ذاك فحرفي لأنه يتمسك بالكلمات والأصوات وهو ظل الشريعة الجديدة، وهذه حقيقة واقعية والكلمات والأحرف هي بالنسبة للأشياء صورة ورمز، وقد أعلن الله بها الحوادث على ألسنة الأنبياء في العصور السحيقة، "سأعقد ميثاقاً جديداً لا يشبه الميثاق الذي عقدته مع آبائكم هوذا الميثاق..." (ارميا 31: 33).
لكي تكون لنا معرفة بهذه الشريعة يقول داود:" أنا اعرف أن الرب عظيم"، اعرف ذلك بالتجربة لا من الغير ويحضّنا على فعل ذلك:" ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب". ومع أن داود غنّى طيب الرب على أوتار كثيرة إلا أن أناشيده تعتبر عاجزة عن إعطاء فكرة صحيحة عن طيبه ويفرض على مستمعيه أن يدركوا ذلك بأنفسهم. المعمودية تحتفظ بهذه المعرفة للنفوس التي تقبلها. أنها توحي للخليقة الخلق وللذكاء الحقيقة وللقلب الكائن الوحيد المرعوب والرغبة التي توحيها حارة وملتهبة والحنان لا يوصف والمحبة تفوق الطبيعة. لا مجال لأي رغبة هنا. كل شيء مؤات، لا شيء يضاد. كل شيء غزير فلنفسر ذلك.
إن الله وضع في أعماق النفوس رغبة الوصول إلى الخير الذي تشتاقه وامتلاك الحقيقة التي تفتش عنها خلواً من كل خطأ. من يخدع لا يكون سعيداً ولا يفرح، من يضل أو من يصادف الشر بدلاً من الخير وبالرغم من هذه الرغبة الملحة لا يملك الخير ولا الحق نقيين من كل مزيج وكثيراً ما يكون ما نسميه خيراً وحقاً معكوساً. أننا لا نستطيع أن نتصور أيضاً قوة المحبة وعزم الفرح وهوس الرغبة وتأجج اللهيب ما دام غرض إيماننا وفرحنا غائباً، وغرض إيماننا لا يمكن أن يوجد في الأرض، أن المرغوب موجود لأولئك الذين يذوقون الرب والقلب وجد كدرج فسيح ليحوي المرغوب هذا الكنز الثمين، يحوي الله. فلا شيء يطفئ رغبتنا ولا شيء يشبعنا. أننا دائماً في حالة عطش دائم كأننا لا نصل إلى غرض تجلياتنا. النفس البشرية عطشى "من يشرب من هذا الماء فلا بد له أن يظمأ. وأما الذي يشرب من الماء الذي أعطيه إياه، فلن يظمأ أبداً" (يوحنا 4: 13-14) هذا ما قاله السيد للسامرية. أنها المياه التي تهدئ رغبات النفس" سأرتوي إذا رأيت مجدك" (مزمور 16: 15). خلقت العين للنور والأذن للسماع، ولكل شيء غاية. ورغبة النفس الانطلاق نحو المسيح.
لا تجد النفس راحتها إلا في المسيح لأنه الحقيقة والصلاح وكل ما يجب ولا حقيقة ولا صلاح غيره ولا يجيز للنفس بقدر ما فيها من المحبة التي أعطيت لها منذ الخليقة أن تتمتع وتفتش عن خيرات غير الخيرات التي منحت لها بالمعمودية. إن خيرات هذا العالم لا تثير في النفس لا المحبة الحقيقية

ولا الفرح لأنها خداعة ولا تتفق مع طبيعتها وكثيراً ما تكون الخيرات التي نراها في العالم مقبرة للخير. يحدث في عالم فوق الطبيعة المعكوس. لا شيء يتعارض مع الآخر. المحبة والفرح يظهران بصورتهما الخلابة الرائعة والله قد خصهما به لنحبه ونفرح به ويقاس عزم هاتين العاطفتين في لا نهاية هذا الخير. لنقدر عظمة هذه المحبة ولنعترف بسموّ درجتها. فالله لا يطلب إلا محبتنا ليعتقنا من كل ديننا. كيف لا نعتبر الله الديان أسمى ما في السمو وهو الذي بعدله يجعلنا معدلين للخير اللانهائي. بالفعل إن قمة المحبة تفرض قمة الفرح، فالفرح هو من فعل المحبة. والفرح العظيم يأتي من المحبة العظيمة فلا مجال للشك بأن الأرواح تختفي في ذاتها إمكانية عظيمة وعجيبة من الفرح والمحبة وتبتدئ ناشطة، منذ حضور السامي، في المجال المحبوب جداً فيها. وهذا ما يدعوه يوحنا بالفرح الكامل (يوحنا 15 : 11).
وهكذا عندما يحل الروح القدس فينا ينشر أول ما ينشره من المواهب المحبة والفرح" ثمر الروح هو المحبة" (غلاطية 5: 22). ما هو السبب؟ لأن الله عندما يحل فينا يشعرنا بوجوده ومن يشعر بحضور الصلاح يحبه ويفرح به ضرورة.

معرفة الله تعطى بالمعمودية

عندما صار مخلصنا إنساناً طلب أول ما طلبه أن يعرفوه. هذا ما أظهره وعلمه منذ البداية ومن أجل هذه الغاية تجسد مكرساً ذاته من اجلنا:" أتيت إلى العالم لأشهد للحقيقة" (يوحنا 8: 37). فالحقيقة هي المسيح. تجنّب المخلص أن يقول ذلك تواضعاً" لكي لا اشهد عن نفسي". وهذا ما يستمر على فعله مع المعمدين. أنه يشهد للحقيقة ويبعدهم عن الخيرات الخداعة ويقوم واهباً الخير الحقيقي بكشفه لهم نفسه حسب تعبيره (يوحنا 18: 37 و 14: 22).
الأفعال كما قلت تظهر أن هذه التأكيدات أساسية وأن المعمدين يتميزون بنوع من الإدراك الإلهي. وإذا كانت هذه الحقيقة تحتاج إلى براهين قاطعة من قبل الكثيرين من الرجال القديسين فما علينا إلا أن نقرأ صاحب النفس الشفافة المشعة ونسمع الصوت الرنان كالذهب، صوت يوحنا الذهبي الفم: "أن مجد الله ينعكس كما مرآة ليحولنا إلى صورته. ماذا يعني ذلك؟ كان من السهل أن نفهم ذلك لو كانت العجائب فينا أكثر حيوية في فعلها الكامل. هذه الحركة تظهر في الوقت الحاضر عند المستنيرين بالإيمان. عندما نعتمد تصبح نفسنا المطهرة بالمعمودية أكثر إشعاعاً من الشمس لا من حيث طبيعتها الخاصة فحسب بل بسبب بريق الشمس لأنها تقبل من الروح شعاع المجد حتى تنتهي بامتلاك إشعاع خاص بها، ولا تصير كذلك إلا بروح السيد الذي ينقل لها ذلك". ويقول في مكان آخر: "أتريدون أن تصبح هذه الحقيقة محسوسة؟ تذكروا القديس بولس والقديس بطرس اللذين كان لهما تأثير عظيم، الواحد بثيابه والثاني بظله. لم يكن للثياب زهوة ولا للظل لو لم يكن الرسولان من حملة صورة الملك ولو لم يكن إشعاعها انعكاساً لمجد لا يدرك. فالعباءة الملوكية توحي بالخوف لفاعلي الشر. أتريدون أن تروا هذا الإشعاع من خلال الجسد؟ أن وجه استفانوس ظهر للأعين الشاخصة إليه كأنه وجه ملاك (أعمال6:1)، لا شيء يوازي البهاء الداخلي. ما حمله موسى فوق جبينه حمله القديسون في أعماق قلوبهم بصورة أكثر بهاءً. كان إشعاع موسى حسياً وإشعاع الرسل فوق الحس. الذرات المشعة من أجسادٍ مشعة تنعكس على الأشياء المحيطة بها وتنقل إليها إشعاعها، وهذا ما يقال عن المؤمنين، أن النفوس المختارة تنفصل عن الأرض ولا تحلم إلا بالسماء. ولكن ويا للأسف! هناك ما يدعو إلى البكاء والنحيب عندما نفكر أننا نحن، ورثة هذا الشرف العظيم، لا نفهم حتى ما قيل لنا. ننسى سريعاً ونترك أنفسنا في يد الأشياء الأرضية الخداعة. المجد الفائق الوصف يسكن فينا ليوم أو يومين ثم نطفئه باحتضاننا لزوبعة أحلامنا العادية وأعمالنا اليومية وبحجبنا الأشعة بغيمة كثيفة. وهكذا لا يستقي المؤمنون من أجران المعمودية كما نتصور معرفة بسيطة عن الله تقوم على أخذ فكرة أو معلومات سطحية عنه أو نفرض إيماناً بسيطاً بل معرفة أكثر عمقاً وكمالاً وموضوعية ونخطئ إذا اعتقدنا أن هذا البرق الخاطف يدخل إلى النفوس شعاعاً مقيماً من أشعة الذكاء ينطفئ خلال يوم أو يومين وسط الضجيج والضوضاء. أن الإيمان، لا أحد يجهل ذلك، ينشيء لاهوتاً مهما كان

الاهتمام به قليلاً ويعرف ما هو الخلاص والحكمة الحقيقية حتى ولو كان الإنسان غارقاً في ظلمة الشهوات. ويستنتج من هذا كله أن الإدراك الإلهي يأتي عن الاتصال المباشر بالله في الوقت الذي يأتي فيه الشعاع الإلهي لو لامس النفس بصورة غير منظورة.
كل الطقوس التي ترافق الغسل في المعمودية ترمز بدقة إلى هذا الإشراق، فالاحتفال هذا هو احتفال الأنوار والشموع والأناشيد وحركات الكورس والمظاهر الظريفة. كل شيء مفرح حتى أثواب المعمودية الناصعة البياض معدة للذين سيرون النور.
أن البرقع الذي يغطي الرأس يرمز إلى الروح القدس وشكله يعلن حضور المعزي لأنه على شكل لسان يغطي الرأس، وعلينا أن نحافظ على قدر الإمكان على هذا الشكل الذي ظهر به الروح القدس عندما عمّد الرسل في البدء. يستقر فوراً فوق هذا القسم من الجسد ويمكن رؤيته فوق رأس كل إنسان شعلة على شكل لسان، وذلك حسب اعتقادي لإدراك السبب من نزول الروح القدس، وهو بشارة الذين يجهلون الكلمة المساوي له في الجوهر. هذا هو دور اللسان المترجم لحركات النفس الصميمة المعبرة عن مكنون الداخل. وهكذا يُظهر الكلمة الآب والروح القدس الابن ويقول يسوع عن أبيه" لقد مجدك" (يوحنا17: 4)، ولهذا ظهر الروح القدس للرسل تحت هذا الشكل. أن البرقع الرمزي يعيدنا إلى هذه العجيبة، إلى هذه الذكرى، إلى هذا اليوم المقدس الذي صار شاهداً للمعمودية الأولى. يذكرنا بأن أولئك الذين قبلوا الروح القدس أولاً نقلوه إلى خلفائهم وهؤلاء إلى من جاء بعدهم وهكذا إلى أيامنا. لا تلغي هذه الموهبة إلا عند ظهور الواهب بالذات فالسيد إذ ذاك يبعد كل برقع ويمنح الصديقين رؤيته بالذات. أما الآن فلا نستطيع أن نصل إليه إلا على قدر ما يسمح به برقع الجسد السميك.
أن الفرح الذي لا يعبر عنه والمحبة العزومة هما من نتاج الرؤية الإلهية ويجب أن تعزى الكشوفات العظيمة لهذا الفرح ولهذه المحبة، وكذلك الأعمال الخارقة والسير الظافر المنتصر وسط الحواجز والمصاعب. فلا التجارب ولا المسرات تستطيع أن تجذب أو أن تجر إليها الذين هم تحت سلطان وسيطرة محبة كهذه المحبة.

موجز ونتيجة

تتلخص نتائج المعمودية كما يأتي: محو الخطيئة، مصالحة الإنسان مع الله، سكن الله في الإنسان، فتح أعين النفس بالأشعة الإلهية، تهيئة كل شيء لعام الاستقبال. فإذا سمينا المعمودية ولادة أو إذا نعتناها بنعت آخر مماثل لا نتعدى الواقع مع العلم أنها توقظ في النفس البشرية المستنيرة حديثا معرفة الله. أضف إلى ذلك كونها حقيقة وقاعدة حياة لأنها كما يقول مخلصنا" الحياة الحقيقية تقوم على معرفة الله الوحيد يسوع المسيح الذي أرسله" (يوحنا 17، 3)، أو كما يقول سليمان الحكيم" معرفتك هي أساس الخلود" (حكمة 15، 3) وإذا أرادنا أن نعالج الأمر عقلياً فمن يجهل أن وجود الإنسان الحقيقي وسموه يقوم في حياته العقلية ومعرفته؟ وإذا كان الأمر كذلك فهذه الحياة تقوم على المعرفة الكاملة الخالية من كل ضلال. أهناك معرفة أكثر كمالاً من المعرفة التي تستهدف الله الذي يفتح أعين النفس ويوجهها نحوه بعيداً عن كل ضلال هذا ما تفعله المعمودية.
مما تقدم تبين أن المعمودية تعطي مبدأ الحياة بيسوع المسيح إلى البشر كما تعطيهم الوجود والحياة الحقيقيين. فإذا كانت هذه الأفعال لا يظهر عملها في كل المستنيرين حديثاً لا يعني أن السر مسؤول عن ذلك بل الأفراد الذين لم يستعدوا جيداً لقبول النعمة أو لأنهم بدّدوا الكنز المعطى لهم بالمعمودية.
ألا يكون أجدى وأعدل لو اتهمنا أولئك الذين لا يحملون إمكانية قبول السر بدلاً من أن نقول بعدم فاعلية السر الواحد المعطى للجميع! من الواضح أن هذه الغزارة من المواهب تعود إلى المعمودية لا إلى طبيعتنا ولا إلى الجهد الشخصي وإلاّ كيف يقبل أن يكون الشيء الواحد مضيئاً ومظلماً في وقت واحد؟ كيف يمكن أن يجعل الإنسان سماوياً وألا يجعله؟ يرفع إلى ما فوق ولا يرفع؟ أنستطيع أن نتهم الشمس بالظلمة وأن ننكر نورها إذا كان بعض البشر لا ينظرون أشعتها؟ أننا نخاطب الذين ينظرون وإذا تكلمنا خلافاً لذلك فأننا نتهم بعدم المنطق، إذا قلنا أن من الاستنارة يصدر غير النور ما تعنيه هذه الكلمة.

المسحة ووضع الأيدي

هذا الترميم الروحي وهذا التجديد بالمعمودية يستدعيان أفعالاً ونشاطات تتناسب معهما. المسحة هي التي تعطي هذه الأفعال وتجعل القوى الروحية، كل القوى، في حركةٍ وفقاً لقابلية الفاعل وتعطي للمعمدين النتيجة التي كانت تعطى بواسطة وضع الأيدي على المستنيرين حديثاً من قبل الرسل، "بوضع أيدي الرسل كان الروح القدس ينزل على المعمدين حديثاً"(أعمال الرسل 8: 38- 39)، وهكذا ينزل المعزي في أيامنا على المثبتين واليك البرهان.

كان الملوك والكهنة تحت ظل الشريعة القديمة يمسحون. إذا كانت الكنيسة تستعمل المسحة لتنصيب الملوك، وتعمد إلى وضع الأيدي لسيامة الكهنة، مستدعية الروح القدس، فهذا يعني أن الكنيسة تنظر إلى المسحة ووضع الأيدي نظرة واحدة. أضف إلى أن الطقسين المقدسين يسميان ويلقبان بالألقاب والأسماء نفسها. فالسيامة تسمى مسحة كما أن الختم يقال له موهبة الروح القدس. وفي الواقع أن الكهنة القديسين يسمون السيامة مسحة كهنوتية، وعلى أساس اعتقادهم هذا يطلبون في ابتهالاتهم إلى الله أن يأخذ المختومون الروح القدس. والسر أن يعطى إلى الذين يقبلونه كختم للموهبة الإلهية. وهذا ما يرتله المرتلون أثناء المسحة. إن المسيح يسمي ذاته ممسوحاً لا لأن المسحة قد انسكبت فوق رأسه بل بسبب الروح القدس الذي به صار كنزاً لفعل روحي في الجسد الذي اتخذه. لا يقال المسيح الممسوح فقط بل مسحة أيضاً، "إن اسمك زيت ينسكب" (نشيد الأنشاد 1: 3). أنه ممسوح منذ الأزل وصار فيما بعد مسحة لأن كل ملء اللاهوت كما يقول القديس بولس يحلّ فيه جسدياً (كورنثوس 2: 9)، ولم يعطه الروح القدس بشح بل أغناه بكل الكنوز الروحية فانسكبت المسحة وانتشرت في كل جسده، فصار يقال للمسيح مسحة حقيقية، وأن تعطى أن تصير مسحة تنسكب تكون للمسيح، ومن أجل أن يقوم بمثل هذا العمل، لم يكن مضطراً أن يغير مكاناً، أو أن يهدم حاجزاً بعد أن حقق ما يفصلنا عنه، ولم يترك فاصلاً بيننا وبينه. إن الله لم يكن بعيداً عنا بالمسافة، ما دام الله يحتل كل مكان، بل كان بعيداً عنا بالشبه. إن طبيعتنا باختلافها معه في كل شيء ابتعدت عنه. لم يكن بينها وبينه أي شيء مشترك. كان إلهاً وما كانت طبيعتنا إلا بشرية.وعندما تألّه الجسد، واتحدت الطبيعة البشرية أقنومياً بالله الذي كماله يحدد المسافات، صار مسحة، ولم يعد لعدم الشبه من وجود، والشخص ذاته الذي كان إلهاً من ناحية، ومتجسداً من ناحية أخرى، هذا الشخص محا المسافات بين الألوهة والبشرة، وصار همزة وصل بين طبيعتين لا يربط جوهرهما البعيد الواحد عن الآخر أي رباط. فكما أنّ الأريج الذي يملأ الوعاء يصبح والوعاء شيئاً واحداً، لا يمكن أن يعزل عن محيطة الخارجي لأنه غير محصور ما دام قد احتل الوعاء وصار الوعاء قسماً منه، يشترك بالأريج كذلك طبيعتنا التي تألهت بجسد المخلص، لا شيء يفصل الله عن الجنس البشري، لا شيء يتعارض مع اشتراكنا في النعم ما عدا الخطيئة. الله هدم الحائط المزدوج، أي طبيعتنا، بتجسده وإرادتنا الملتوية بالشر، بقبوله للصليب الذي حرر من الخطيئة. لهذا السبب نعمد إلى الختم بعد المعمودية الحاوية والمالكة لفاعلية صلب المخلص وموته. فهو موهبة الروح القدس ولم يبقى بعد تنحية الحاجزين وأبعادهما ما يعيق انتشار الروح القدس.

نتائج الختم

أن سرّ المسحة المقدس يوزع على المعمدين مواهب الأشفية والنبوة والكلام، أمّا الأسرار الأخرى فتظهر قدرة المسيح الفائقة الطبيعة للجميع. كانت هذه العلامات الخارقة ضرورية في عصر تأسيس الكنيسة وتوطيد المسيحية ومنذئذ صار بعض المسيحيين في الماضي القريب. وفي وقتنا الحاضر من المحظيين فقالوا في المستقبل وطردوا الشياطين وشفوا المرضى بابتهالاتهم، لا وهم على قيد الحياة بل وفي قبورهم. فالقوى الخارقة لا تترك أجساد المغبطين حتى بعد الموت.

إن سرّ المسحة يعطي المسيحيين على مدى الزمان المواهب النافعة جداً للنفوس والتقوى والابتهالات والمحبة والنقاوة وخيرات كثيرة قد تغيب عن أذهان المؤمنين أما لأنهم يجهلون فاعلية السر، أو كما تقول الأعمال" يشكون إذا كان الروح القدس موجوداً" (أعمال19: 2) وأما لأنهم لم يُعطوا وزناً لقبول المواهب لان السر أعطي قبل سر النضج وأنهم عندما صاروا في سن الإدراك ضلوا وأعموا عيونهم الروحية. وصحيح القول بأن الروح القدس يعطي مواهبه للمختومين "موزعاً على كل إنسان حسب مشيئته" (قور12: 2). إن معلمنا لا يتعب من إجبارنا وهو الذي وعدنا بأن يكون معنا إلى منتهى الدهر. ومع هذا كله فالطقس لا يذهب سدى فكما انه بالتنقية ننال مغفرة الخطايا ونأخذ من على المائدة المقدسة جسد المسيح وأن هذه الأفعال ستبقى إلى المجيء الثاني لمعطيها، كذلك لا مجال للشك بأن المسيحيين يستخلصون من ختم الروح القدس الإمتيازات الملازمة له، مواهب الروح القدس. أيمكن أن تكون لبعض الأسرار أفعال وللأخرى لا؟ أيمكن أن يكون الله باراً بوعده في كل الأسرار ما عدا المسحة المقدسة؟ لا يجوز أن نقلل من قيمة أي سر فإذا قللنا من قيمة سر واحد نقلل من قيمة كل الأسرار لأن القوة الفاعلة في كل الأسرار واحدة. فالذبيحة ذبيحة الحمل ذاته، والميت هو الله والدم هو نفس الدم الذي يهب الفاعلية للجميع. أن الروح القدس كما يقول الرسول بولس يعطي للبعض مواهب من أجل منفعة القريب فالبعض يتنبأون بالمستقبل والبعض يبشرون بالأسرار والبعض يشفون المرضى... ومن أجل بنيان الكنيسة والبعض الآخر يعطيهم المواهب لتشرق فيهم التقوى وتكمل نقاوتهم ومحبتهم وتواضعهم (1كورنثوس: 14: 5).

من الممكن أن يكون الإنسان عاقلاً وأن يكون من أصحاب العادات التي لا غبار عليها فيعمل الخير ويعظ، وأن يكون فاضلاً يقوده العقل وصقلته التجارب، كما يكون رجلاً من أصحاب الإيرادات القوية التي تتمكن أن تتغلب على الأهواء، وأن يكون محباً ومطبقاً لكل عدالة وأن يمتثل في كل شيء للحق والعدالة ولكن مواهب الروح القدس هي التي تنقل له كمال المواهب فكما أن بعض الغرائز الحيوانية تنتقل إلى الممسوسين والمملوكين بالأرواح الشريرة كذلك الفضائل الفائقة الطبيعية تُنقل إلى النفس بواسطة الروح القدس. هكذا أحب الرسول بولس الذي كتب إلى أهل فيليبي يقول أنه يحبهم في أحشاء المسيح وكذلك قيل عن داود" وجدت رجلا حسب قلبي" يقوم بأعمال الوداعة. وكذلك فعل قديسون آخرون وبرهنوا عن كمال يفوق قواهم. إن الإيمان هو موهبة الروح القدس الذي طلبه الرسل من المخلص "زد إيماننا" (يوحنا 17: 17) ويستجيب الله لمن يرجوه. ويتوسل الروح بتنهدات فائقة الوصف (رومية 8: 26) واهباً فضيلة الغنى لتضرعاتنا.

هذا باختصار: إن الروح القدس هو روح حكمة، روح فهم، روح مشورة، روح قوة، روح تقوى. إنه مواهب عديدة توهب لمن يقبله.

السر يفعل فعله

أن ختم الروح القدس يفعل فعله عند كل الممسوحين ولكن الشعور بهذه المواهب لا يكون واحداً عند الجميع ولا يعملون على توزيع هذا الكنز بالسرعة التي يستحقها وذلك لأنهم لم يصلوا إلى سن الإدراك، أو لأنهم يفتقرون إلى الاستعداد والقابلية وقت قبول المعمودية، ومع ذلك برهن البعض بدموع ندامتهم وحياتهم على أنهم قبلوا النعم الممنوحة لهم بالسر. وقد كتب الرسول بولس إلى تلميذه تيموثاوس يقول: "احذر من أن تهمل النعمة التي فيك" (تيموثاوس 4: 14)، لأن النعمة المهملة لا تفيد شيئاً وأن الكد والسهر مفروضان على الذين يريدون لأرواحهم مغنماً روحياً من هذا السر.

إذا رأينا إنساناً فاضلا يمتاز بالمحبة ويتميز بالنقاوة الخلقية وبعظم تواضعه وكثرة تقواه أو بأي فضيلة أخرى مطبقة تطبيقاً يثير الإعجاب فالسبب هي المسحة المقدسة التي أعطيت له وقت إتمام السر عن استحقاق والتي شعر بمفعولها فيما بعد. وينطبق هذا القول على الذين يكشفون المستقبل والذين يشفون المرضى والمعتوهين وأمراضاً أخرى بدون الالتجاء إلى المهن وعلى الذين يقومون بأشياء عجائبية أخرى. ما قيمة المسحة إذا كانت لا تفعل فعلها وقت إتمام السر؟ ما قيمتها إذا كنا لا نستطيع أن ننسب لها أفعالاً خارقة يقوم بها المؤمنون فيما بعد؟ ما هو فعلها إذا كانت لا تحقق ما

نرجوه من إقتبالها؟
فلا نقولن انه على حساب هذه الأعمال الخارقة ننال أموراً أخرى لأننا إذا لم ننل ما هو معلن وما ترمي إليه الأشياء وما يطلبه مكمل وما يؤكده وما يجب أن يناله الممسوح فمن العبث أن نطلب شيئاً آخر، "ليست بشارتنا عبثاً ولا إيماننا". يجب أن نستنتج أن كل عملية تفوق الطبيعة، كل ما يدخل في نطاق مواهب الروح القدس يجب أن يعطى للصلوات والمسحة.
لم يعط شيء للمصالحين مع الله إلاّ وكان العاطي من كان وسيطاً بين الله والبشر، ولا يمكن أن نصل إلى الوسيط بدون الأسرار للاتصال به أننال المواهب. فالأسرار هي التي تخلق هذا التجاذب بين دمه ودمنا وتجعلنا مشاركين له بآلامه ونعمه تجسده الإلهي. علاوة على ذلك يجب أن نعرف أن الشرطين الأساسيين اللذين يحققان مصالحتنا مع الله وسلامنا الأبدي هما اشتراكنا في الأسرار المقدسة وعمل الفضيلة. ثانياً الجهود الشخصية التي ترمي إلى الحفاظ على خيرات الممنوحة وعدم تبديد كنوزهما. أن فضيلة الأسرار وحدها تحقق لنا هذه الخيرات وهذه الكنوز. كل سر له مفعول الخاص وكذلك إعطاء الروح القدس ومواهبه. فإعطاء الروح القدس يتم بواسطة المسحة المقدسة لذلك لا يجوز أن ننظر بعين الشك والريبة إلى مبدأ الأسرار حتى ولو كانت مفاعيل مواهبها لا تظهر أثناء القيام بالطقس، وكذلك الاستنارة الناتجة عن المعمودية. عند بعض الأشخاص الحاري الإيمان لا تظهر إلا بعد زمن وذلك عندما تتنقّى أبصارهم بالتعب والعرق ومحبة المسيح لهم.

نتائج المسحة المقدسة

إن بيوت العبادة تصبح بالتكريس أمكنة مؤهلة للصلاة، وفي الواقع بعد مسحها بالزيت المقدس تصير كما يدل عليها اسمها. فالمسحة المنسكبة هي وسيطنا عند الله الآتي لأنه هو المنسكب بذاته وهو الذي صار مسحة وانسكب حتى إلى طبيعتنا.
تقدم الهياكل المهمة نفسها التي تقوم بها يد المخلّص ونقبل من المائدة المكرمة بالمسحة الخبز كأننا نقبل من يده الكلية الطهارة جسده المقدس ونشرب كل دمه كما شربها الرسل عندما ناولهم مخلصنا لما رفع الكأس على شرف هذا الشراب غير المغلوب. وبما أنه في الوقت نفسه صار كاهناً ومائدة وضحية وفصحاً وخادماً وتقدمة فالمسيح قسم أدواره بين خبز التقديس والمسحة. فالمخلص مائدة وضحية بسبب المسحة. المائدة تصبح كما هي بالمسحة ويصير الكهنة كما هم كممسوحين. المخلص ضحيّة بسبب عذاب الصليب والموت الذي لقيه من أجل مجد الله أبيه،" إننا في كل يوم نأكل جسده ونشرب دمه نعلن قيامته" (قور 11: 26).
المسيح مسحة وختم أيضاً بسبب الروح القدس وعليه أن يتم المهمات الكثيرة القدس وأن يقدس. لم يكن هو موضوع التقديس. الدور يعود للمذبح، إلى المضحي، إلى المقدم لا إلى التقدمة، لا إلى الضحية وقد قيل أن المذبح يقدس" المذبح يقدس التقدمة"(متى23: 19). وكخبز قدم وكمسحة يقدم بعد أن أله جسده ويقدمنا نحن بعد أن جعلنا شركاء في مسحته. فيعقوب مسح الحجر رمزياً ثم قدمه للرب وعنى بالمسحة هذه جسد الرب المخلص، حجر الزاوية الذي بنى عليه إسرائيل الحقيقي، الذي وحده عرف الرب، سكب مسحة الألوهة أو نحن ليقيم المسيح منا نسلا لإبراهيم بواسطة الختم المقدس لأن المسحة المقدسة بانسكابها على المختومين تصبح بين ما تصبحه روح بنوة. هذا الروح يشهد لروحنا بأننا أولاد الله...(رومية 8: 15). وهكذا يسهم الختم في بناء الحياة في المسيح.

السر العظيم

نتقدم من المائدة السرية لنصير شركاء في جسد السيد الطاهر ودمه الكريم. يستقي المسيحي من المناولة الإلهية الحياة الروحية بقوتها العظيمة. لا يستطيع الإنسان أن يتصور سعادة أسمى من سعادة الاشتراك في هذا السرّ العظيم. فالمقصود هنا ليست الحياة الفضلى فقط بل ما هو أسمى. بالمناولة

المقدسة لا نأخذ بعض الهدايا من الروح القدس بل السيد الناهض، المحسن الكبير، الهيكل الحاوي لكل النعم والمواهب الإلهية. لا شك أن المسيح موجود في كل أسرار كنيستنا. أنه حاضر في الذين يشتركون فيها ويعطي النعم بطرق مختلفة ولكنه عندما يقود المؤمن إلى سر الشكر الإلهي ويعطي جسده طعاماً روحياً ودمه فإنه يحول الإنسان. يبقى الإنسان حتى المناولة طيناً ولكنه بعد المناولة لا يبقى كما كان طيناً. يأخذ شكلاً ملوكياً، يصبح جسد المسيح الملك. أية سعادة أعظم من ذلك؟

إن المسيح، وفقاً للوعد الذي قطعه، يسكن فينا ونحن فيه بالمناولة المقدسة: "من أكل جسدي وشرب دمي يبقى فيّ وأنا فيه" (يوحنا6: 56). وعندما يسكن المسيح فينا على الدوام، عندما يسكن في قلوبنا فماذا نحتاج بعد؟ أيمكن أن نحرم من أية خيرات حقيقية؟ إن المسيح مسكن لنا وساكن. أننا سعداء لأن لنا بيتاً كهذا. إننا سعداء أيضاً لأن المسيح جعل بيته فينا. أية خيرات ليست في متناول يدنا؟ أية خيرات روحية تنقصنا إذا كنا مرتبطين بهذا الرباط مع السيد؟ عندما نصل إلى هذا البهاء الروحي أيمكننا أن نهتم ببطل العالم وفساده؟ أي شرير، أي ماكرٍ يمكنه أن يقف في وجه غنى الخيرات الروحية؟ إذا كان المسيح فينا فلن يدخل شر واحدٌ إلى قلوبنا، إذا كان يملأ قلوبنا بحضوره ويسكن في أعماق نفوسنا ويدخل إليها ويسود ويحوّطنا من كل جانب انه يطرد من داخلنا كل اندفاع مجرم لأنه ساكن فينا إنه يريد أن يملأ بذاته كل البيت، يريد أن يملأ قلوبنا. ففينا لا يسكن قسم من المسيح بل المسيح كله، ولا أنوار قليلة وأشعة روحية معينة بل الشمس الروحية كلها. إننا نصبح مع المسيح روحاً واحداً وبالمسيح يصبح الجسد والروح والقوى كلها روحية. أن القوى الإلهية السامية تسود على القوى البشرية الوضيعة. يحدث ما يقوله الرسول بولس عن القيامة: "لكي يداس الموت بالحياة" (2 قورنثوس 5: 4) أو "أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ"(غلاطية 2: 20).

يا للسر العظيم الذي لا يدرك غوره! نتحد مع المسيح اتحاداً يصبح فيه عقل المسيح عقلنا، وإرادته إرادتنا، وجسده جسدنا، ودمه دمنا. كم يرتفع عقلنا في الواقع عندما يسوده عقل المسيح وكم ترتفع إرادتنا إذا خضعت لإرادته المغبوطة؟ إن جسدنا كم يتنقى وهو الطين عندما يوجد وسط شعلة المسيح! أيمكن أن نحقق مثل هذا الارتباط مع المسيح؟ إن الرسل بولس يجيب على ذلك لأنه تمكن أن يجعل من عقله عقل المسيح ومن إرادته إرادة له ومن حياته "لنا نحن فكر المسيح" (1 قور2: 16)، "ومن المسيح المتكلم فيّ اطلبوا برهاناً، (2 قور13: 3)، "وأني لاعتقد بأني أملك روح الله" (1 قور7: 40)، "واشتاق أن يكون المسيح في أحشائكم جميعاً" (فيلبي1: 8).

يستدل من كل ذلك أن الرسول بولس كانت له إرادة المسيح ويعلن هذه الحقيقية إعلاناً صارخاً عندما يكتب ويقول: "لا أحياء أنا بل المسيح يحيا فيّ". يا لعظمة سر الشكر المقدس! أنه يقود الإنسان إلى قمة الخيرات ويشكل الكلمة الأخيرة للارتفاع البشري لأن الله يتحد بنا بواسطة هذا السرّ اتحاداً كلياً ونهائياً.

الدواء ضد الخطيئة

أن جسد المسيح هو الدواء ضد الخطيئة، ودمه الكريم هو السبيل الوحيد الذي به يتخلّص الإنسان من جريرته وثقل خطيئته. فجسد المسيح صار كنزاً للكمال الإلهي وكان دائماً نقياً من كل خطيئة فأتمّ كل عدالة وبشّر بالآب بين البشر وكان مجهولاً عندهم وقتئذ. بشّر به قولاً وفعلاً. هذا الجسد الذي نتناوله ذبح فوق الصليب وقاسى العذاب عندما اقتربت الساعة للتضحية فاستحم وسط عرق من دم. خانه يهوذا وقبض عليه وسيق مقيداً إلى أمام فاعلي الإثم، وشهد أمام بيلاطس الشهادة الصالحة كما يقول الرسول بولس. وبسبب شهادته العظمى تحمّل الموت، موت الصليب. تحمّل هذا الجسدُ الذي نتناوله الجَلْد أيضاً، وسمّرت اليدان والرجلان وطعنت الجنب بحربة وتألم وقت الجلد ألماً عظيماً وعانى أشد العذاب عندما سمّر على الصليب. وهذا الدم الكريم، دم المسيح الذي نتناوله عندما انسكب من الجراح، أظلمت الشمس ومادت الأرض وتزلزلت، وتقدس الفضاء وتنقى العالم كله من رجس الخطيئة.

لم تكن للناموس الحرفي، ناموس العهد القديم، قوة تجعل الذين يحافظون عليه كاملين لأنه ناموس ناقص كان من الضروري أن يكشف عن ناموس الروح، ناموس العهد الجديد الكامل والقادر أن يقود

الإنسان إلى الكمال. إن الألم الذي يعانيه المسيحيون والدموع التي يكسبونها ليحوزوا من جديد على النعمة التي خسروها بسبب الخطايا بعد المعمودية لا يفيد أنهم في شيء إذا هم لم يركضوا ويسارعوا إلى دم العهد الجديد والى جسد المسيح الذي ضحّي على الصليب. أن سر الشكر هو السر الذي يعتق أمام عدالة الله أولئك الذين اعترفوا بانسحاق قلب أمام الله بخطاياهم. نعتمد مرة واحدة ولكننا نتناول مراراً لأننا كبشر نخطئ ولكي نتخلّص من خطايانا من الضروري أن نهرع إلى التوبة والى الجهاد والصراع ضدّ الخطيئة ولكي نحظى بالغلبة علينا أن نتناول جسد المسيح ودمه الذي يشكل الدواء لشفاء الشرور الإنسانية.

ثمار المناولة الإلهية

أن الزيتونة البريّة إذا طعّمت بطعم صالح تتحوّل وتصبح زيتونة مثمرة وهذا ما يحدث تماماً معنا نحن المسيحيين. عندما نكون وحدنا نبقى بدون ثمر روحي ولكن عندما نرتبط بالمسيح ونتناول جسده ودمه ننال سريعاً عظم الخيرات، غفران الخطايا وملكوت السماوات، أي ثمار التبرير التي يعطيها المسيح. نتناول جسد المسيح الذي يشكل ضمانة لتحقيق الغلبات الروحية والفتوحات السامية.

من الواضح أن حياتنا بعد المناولة الإلهية يجب أن تصير مسيحية النوع، أي على شكل المسيح. "أنتم جسد المسيح وأعضاءٌ من أعضائه" (1 قورنثوس 12: 27). أن كلمات الرسول تنطبق بالأكثر على أرواحنا وتنطبق على جسدنا، ويشير الرسول بولس عندما يقول: "الملتصق بالرب هو بالروح" (1قورنثوس 16: 17) إلى الرباط الذي يربط نفسنا بالمسيح. ويشدد كثيراً على هذا الرباط. لذلك لم يأخذ المسيح جسداً فحسب بل روحاً وعقلاً وإرادة وكل ما هو بشري ما عدا الخطيئة حتى يتحدد كلياً مع وجودنا ويربط كل ما لنا بماله. مع الخطأة فقط لا يتحد المسيح لأنه خلو من كل خطيئة ولا علاقة له بها لأنه بريء من الخطأ. لقد قبل السيد كإله رحيم كل عناصر حياتنا ما عدا الخطيئة وتنازل ليتحد بنا بتنازله الذي لا يحد. فالمسيح الإله الحقيقي نزل إلى الأرض ليرفعنا إلى السماء. صار إنساناً ليرفع الإنسان إلى الله وبقي كإنسان خلواً من كل خطيئة وصار الغالب الأزلي، وأعتق الطبيعة البشرية من الخطيئة والعار، وكمخلص أعتق الإنسان من جريرة الخطايا وصالحه مع الله. لم يكن بإمكاننا أن نصعد إلى السماء وأن ننال هذه المواهب الكبرى ولذلك نزل المخلص إلى الأرض فأخذ ما لنا وأعطانا ما لا ثمن له من خاصته. أعطانا جسده ودمه. وبهذه الطريقة نستقبل الله ونقبله في نفوسنا.

من الواضح أن المسيح يدخل ذاته إلى داخلنا بالمناولة المقدسة ويتحد معنا ويحوّل وجودنا وفقاً لحياته الخاصة. إذا سقطت قطرة من الماء في محيط من العبير فالقطرة تندمج في المحيط وتتحد به وتأخذ كل خواصه وتتحول إلى عبير كالمحيط الذي سقطت فيه. فالمسيح هو الأريج الروحي وله كل القوة ليحول المؤمنين الذين يدخلهم بواسطة المناولة المقدسة إلى أناس ليست حياتهم معطرة فحسب بل إلى أناس يحملون كل عطر المسيح" نحن عطر المسيح الطيب لله ولأولئك نفخة حياة للحياة" (2 قورنثوس 2: 15).

أن سر الشكر يعطي القوة والنعمة إلى نفوس المؤمنين الذين يتناولون بقلوب نقية ويبقون بعيدين عن الخطيئة. ويتحد المسيح بالذين يستعدون قبل المناولة روحاً بطريقة لا تستطيع قوة مهما كانت أن تفصم عروتها. "أن هذا السر لعظيم جداً وأنا أقول هذا بالنسبة للمسيح والكنيسة، (أفسس5 : 32) يقول الرسول بولس عن الوحدة الروحية بين المسيح والمسيحيين الذين هم أعضاء حقيقيون في الكنيسة. سر الشكر نور للذين يملكون قلوباً نقية ونفحة تعطي التقديس وقوة تشدد إرادة أولئك الذين يحتاجون إلى التقديس. لا يوجد غير هذا النبع أمام أولئك الذين يصارعون ويكافحون ضد الخطيئة ليستقوا القوة المقدسة" دم المسيح ابن الله لينقيكم من كل خطيئة" يقول يوحنا الإنجيلي (1يو 1: 7) الذي تمتع بمحبة يسوع الخاصة. المسيح هو الوحيد الذي غلب الشر لذلك يشكل جسده الطاهر الذي مات على الصليب راية غلبة ضد الشر وعوناً قوياً للمجاهدين ضد الأهواء الخاطئة.

العبادة الحقيقية

من الضروري أن نتقدم باستمرار من المائدة الروحية لنتناول جسد المسيح ودمه حتى تبقى الحياة الروحية في داخلنا نشيطة. علينا أن نتقدم لا مرة واحدة بل تكراراً ودائماً. علينا أن نتناول الدواء الإلهي ليجلس الخالق في الطين "الإنسان" ويصلح صورته التي فقدت شكلها الحقيقي بسبب الخطيئة. إن يد الطبيب، يد المسيح، يجب أن تكون دائماً فوقنا لأننا متعرضون لخطر الموت بشتى الأنواع "وكنا أمواتاً في الخطايا فعشنا مع المسيح"(افسس2: 5) ودم المسيح ينقي وجدانكم في أعمال مائتة لتعبدوا الله الحي (عبرانيين 9: 14) يقول الرسول.

إن المائدة الروحية السامية تعطينا الحياة الروحية السامية. وسر الشكر المقدس، هذا الجاذب الإلهي الكلي القدرة يجذب أرواحنا إلى فوق. فسر الشكر نقدم العبادة النقية الحقيقية لله. لأنه إذا كانت العبادة النقية هي الخضوع الكامل لله الذي يحرك ويوجه الكل. فمن الواضح أننا سنحصل على هذا الخضوع عندما نصبح أعضاء في المسيح بواسطة سر الشكر. الرأس يعطي الأوامر للأعضاء. "خبز الحياة" يجعلنا أعضاء في المسيح وكما أن أعضاء الجسد تعيش بالنسبة لعلاقتها بالرأس والقلب، كذلك يقول الرب "من يأكلني يحيا فيّ" (يوحنا 6: 57) لا شك أن الإنسان يحيا بما يدخله إلى أعضائه من غذاء والتغذية المادية ليست حية لذلك لا تعطي الحياة. أنها تساعد على الحفاظ على الحياة الموجودة. ولكن خبز الحياة، المسيح، ليس غذاءً فحسب يساعد الحياة بل هو نبع الحياة والذين يتناولونه يملكون حياة روحية حقيقية. إن خبز الحياة، المسيح يحرك المتناول ويحوله ويدمجه بذاته.

أننا نسجد بواسطة سر الشكر لله، بالروح والحق، ونقدم له عبادة نقيه، والعشاء الروحي هذا يقيمنا من الموت الروحي ويعطينا حياة، ويؤهلنا أن نعبد ونحن أحياء إلهاً حياً. لكن الانعتاق من أعمال الخطيئة المائتة ممكن فقط للذين يتناولون دائماً طعام الحياة هذا. وكما يجب أن نسجد "بالروح والحق" لان الله روح، هكذا يجب أن نعبده بملء الحياة الروحية، لا أمواتاً روحياً لان الله هو الحياة، " ليس الله إله أموات بل إله أحياء" (متى22: 32).

وقد يدعي البعض أن عبادة الله تتم عندما نقوم بأعمال الفضيلة. هذه العبادة هي من صفات العبيد، "عندما تفعلون كل ما أمرتم به تكونون عبيداً بطالين لان ما يجب فعله فعلناه" (لوقا17: 10). المدعوون إليها لا العبيد لذلك نتناول جسد المسيح ودمه، "الأولاد يتناولون جسداً ودماً" فكما أن المسيح اتخذ جسداً ودماً بشريين فقال "هاأنذا والأولاد الذين أعطانِيهمُ الله" (اشعيا8: 18) كذلك نحن لكي نصبح أولاداً لله علينا أن نتناول جسد المسيح ودمه. بالمناولة لا نصبح أعضاء في المسيح فحسب بل أبناء نقدسه ونخضع له بكل نية قلب وكما يليق بالأبناء. عندما نتناول نشعر بقربى نحو المخلص أشد من القربى التي تربطنا بأهلنا الذين ولدونا. إن الوالدين بعد مضي وقت معين يتحررون من الاهتمام بأبنائهم، أما المسيح الذي خلقنا في الحياة الروحية وولدنا فهو حاضر دائماً ومتحد معنا. يستطيع الأبناء أن يعيشوا حتى ولو فقدوا آباءهم، أما نحن فإذا انفصلنا عن المسيح فمن المستحيل إن نحتفظ بالحياة الروحية بل ننقاد حتماً إلى الموت الروحي. إن خبز الحياة يدخل إلى أعماق الإنسان الجديد ويجث أصول إنسان الخطيئة العتيق. المناولة المقدسة تعطي هذا القدر من الخيرات الروحية وبها، أي بمناولة جسد المسيح ودمه، ننعتق من الحكم الأبدي ونطرح عالم الخطيئة ونملك بهاء الصورة الإلهية ونتحد وثيقاً بالمسيح محمولين دائماً إلى سمو الكمال.

الاستعداد الكبير

يمنع الرسول بولس من المائدة أولئك الذين لا يعملون لأنهم لا يريدون: "من لا يعمل لا يأكل" (2سالونيك3: 10). إذاً كان الاشتراك في المائدة الأرضية يحتاج إلى عملٍ فأي عملٍ سامٍ ورفيع، أية حياة روحية تلزمنا نحن الذين نتناول جسد المخلّص ودمه؟ علينا أن نقترب لنتناول القرابين المقدسة بعد تهيئة عظيمة وبعد أن ننقي أنفسنا من كل دنس الخطيئة بواسطة الاعتراف. علينا أيضاً أن نعرف أن المسيح الذي يقدم لنا وليمة سر الشكر الروحية هو قائد جهادنا، يمدُّ يدَ المعونة لا إلى أولئك الذين يرمون أسلحتهم ويسقطون ضعفاً خائري العزائم، واهي القوى، بل إلى أولئك الذين يكافحون بشجاعة ورجولة ضد خصمهم، والسيد الذي في كل سر يصبح كل شيء بالنسبة لنا عندما نجاهد روحياً، أنه

خالقنا ويصير أيضاً مروضنا ورفيقنا في الكفاح الحسن. أنه يحممنا بالمعمودية ويمسحنا فيما بعد ويغذينا دائماً بسر الشكر. إن المناولة الإلهية جائزة روحية تزين وتكلل المبرزين في الجهاد الروحي لان المسيح في هذا العشاء السري لا ينقي المتناول ولا يصبح رفيقه في الجهاد فحسب بل جائزة يجب أن ينالها المرء بعد أن يكافح الكفاح الحسن. وهناك ما هو أسمى من الحصول بالمناولة جوائز أتعاب الجهاد والكفاح في المسيح؟ أهناك ما هو أسمى من الاتحاد به؟ وعندما يتكلم الرسول بولس عن جهاداته الكبرى يعبر عن شوقه عند خروجه من هذه الحياة وتتملكه رغبتان: رغبة الانحلال والوحدة مع المسيح هي الفضلى (فيليبي1: 3). إن اشتراكنا في كأس الحياة يمنحنا الوحدة مع المسيح. وخبز الحياة هو الجائزة للمسيحيين الذين يكافحون ضد الخطيئة: الدم الطاهر والجسد المقدس. وبما أن جميع الذين يتناولون ما زالوا يقطنون الأرض ويعبرون الحياة فلا يزال هناك خطر العثار والسقوط في يد اللصوص المخيفين. لذلك تعطي المناولة المقدسة القوة لهؤلاء وتصبح قائداً قوياً وتنقيهم حتى يصلوا إلى الملجأ الأمين، إلى الملكوت السماوي حيث يكونون باتحاد مع إكليلهم الأزلي، المسيح.

نبع الحياة والتقديس

بسر الشكر الإلهي نحظى بالاشتراك الدائم مع الله. وبه عبادة حقيقية مرضية، ونصبح أبناءً لله وأقرباء للمسيح عندما نشترك في العشاء الروحي. وهذه القربى أشد وأقوى من قربى الوالدين. يعطينا المسيح جسده ودمه ويصير لنا لا سبباً بسيطاً للحياة كما هو الحال مع الوالدين بل نبعاً للحياة. فالمؤمنون الذين يشتركون بعد استعدادٍ في العشاء السري يجعلهم قديسين وأبراراً لا لأنهم تهذبوا كما يجب وعلّمهم ما يلزم، هذّب نفوسهم وروّض إرادتهم على حياة التقوى الفاضلة، بل لأنه هو ذاته صار لهؤلاء حكمة من الله وعدالة وتقديساً وخلاصاً" (1 كورنثوس1: 3).

نتحد مع المغبوط فنصير مغبوطين. نتحد بالحياة فنتقدم نحن الأموات إلى حياة روحية. بهذه الوحدة نصبح نحن الجهلة حكماء ونحوز على الحكمة الإلهية، ونصبح نحن الأشرار العبيد للخطيئة أبراراً وقديسين وأبناء لله، قديسين بالقديس وأبراراً وحكماء بالمتحد بنا السيد القديس الصالح الحكيم. كل ما يملكه المسيح يصبح ملكاً لنا، وبالمناولة نصبح أعضاء وشركاء في جسد المسيح ودمه وروحه. لهذا لا يكفي أن نتحلى بفضيلة عادية أو أن ننال بعض الانتصارات الروحية فقط بل علينا أن نحيا هذه الحياة الجديدة بالمسيح وكلنا مجبرون أن نحمل حياة المسيح المقدسة وأن نحيا معه الحياة الجديدة، لأننا" دفنا معه بالمعمودية في الموت" من به في حتى "نسلك حياة جديدة" (رومية6: 4). يطلب الرسول بولس عندما يكتب إلى تيموثاوس" فز بالحياة الأبدية التي دعيت لها" (1تيموثاوس 6: 12) أن نحيا هذه الحياة، وكذلك الرسول بطرس "على مثال القدوس الذي دعاكم كونوا انتم قديسين في تصرفكم كله" (1 بطرس1: 15).

كما أن الولادة في المسيح هي إلهية وفائقة الطبيعة كذلك الحقيقة المسيحية والغذاء والحمية الضرورية للحياة في المسيح هي جديدة وروحية. شدد المسيح على هذه الحقيقة عندما قال لنيقوديموس: "المولود من الروح روح هو" (يوحنا3: 6). بسر الشكر الإلهي نلبس المسيح ونأخذ الوشاح الملوكي. كل الأمور البشرية تذكر بالعبودية ولكن هناك الحرية والملكوت فكيف نصير أحراراً روحياً وأهلاً لهذا الملكوت إذا كنا لا نظهر فضيلة أكثر مما يظهره العبيد؟ كما أن الفساد الذي تحدثه الخطيئة لا يستطيع أن يرث الحياة الروحية غير الفاسدة "يجب أن يلبس الفساد عدم الفساد، والمائت أن يلبس الخالد" (1 كورنثوس 15: 53) كذلك أعمال العبيد لا تكفي لميراث الملكوت السماوي بل تحتاج إلى تبرير الله الذي يحول عبد الخطيئة لابن وارث، لأن العبد "لا يبقى في البيت إلى الأبد أما الابن فإلى الأبد" (يوحنا 8: 35). فالمسيحي الملتهب بشوق ميراث الملكوت عليه إلا يكون عبداً للخطيئة ليصبح ابناً يملك في داخله الابن الوحيد ويظهر في يوم الدينونة حاملاً لجمال السيد الروحي.

يتخلص الإنسان من عبودية الخطيئة ويصبح حراً روحياً عندما يتحد بالمسيح. لقد أعلن المسيح هذه الحقيقة الجوهرية: "إذا حرركم الابن فأنتم (بالفعل) أحراراً" (يوحنا 8: 31)، يحرر المسيح البشر من

الخطيئة ويجعل العبيد أبناء لأنه هو ذاته حر من كل خطيئة وبريء من كل دنس. فالقديس في كل شيء يعطي للمؤمنين الجسد والدم والروح وبهذه الطريقة يعيد خلقنا ويحررنا ويقودنا إلى التأله لأنه يتحد ذاته معنا، وهو الإله الحقيقي ونبع الصحة الروحية والحياة والحرية. وبهذه الوحدة المستيكية والروحية يصبح المسيح خيراً نمتلكه نحن.
لن نحتاج إلى شيء بشري بعد عبورنا هذه الحياة الوقتية. سنُسال إذاك إذا كنا قد عملنا أعمال المسيح ونقشنا فضائله بطريقة لا غبار عليها في نفوسنا. لن نأخذ الإكليل الذي لا يذبل إذا لم نكن قد جعلنا نفوسنا مطابقة لحياة المسيح، ولم نظهر غنى روحياً يتجدد ويبقى بعيداً عن الفساد، ولم نكن معتقين من كل خبث. يحوز المكافحون على الله كمكافأة لهم فعلينا أن تكون الجهادات إلهية مطابقة للجائزة العظيمة الأزلية. المسيح ليس بمدرب لرياضيي الحياة فحسب بل قائد كلي القدرة لجهاداتنا الروحية وفي الوقت نفسه يتحد بالظافرين في حلبة الجهاد. يريد أن يقودنا من الأرض إلى السماء، إلى الله، أن يعتقنا من كل شيء بشري دنيوي. إننا شديدو المرض في أرواحنا بسبب الخطيئة ونحتاج إلى شفاء. لقد زارنا الطبيب الكلي القدرة وفتح أعين أرواحنا ووهبنا كل ما هو ضروري لشفاء مرض الخطيئة العضال. فالدواء والحمية للنفس هو المسيح. الخطيئة تفسد الإنسان والمسيح يعيد خليقته، ويعيده من جديد واهباً له جسده. خلقنا من التراب الأرضي ولكي يعيد خلقنا أعطى جسده ودمه، وبتضحيته لا يجعل نفوسنا فقط أكثر حسناً بل يعطي لقلوبنا مع دمه الكريم حياته بالذات.
عندما خلق الله الإنسان نفخ في وجهه "نسمة حية" (تكوين 2: 3) "هو الذي أضاء في قلوبنا لإنارة معرفة مجده" ولا يعطي الآن نسمة حياة بل يعطي روحه القدوس،" لقد أرسل الله ابنه إلى قلوبكم منادياً أبا الآب" (غلاطية 4: 6). وبكلمة واحدة قال:" فليكن نور فكان نور" فيما مضى كان الله يهب إحساناته للإنسان بواسطة المخلوقات، بالأوامر، بالنواميس، بالملائكة. أما الآن فانه يحسن إلينا رأساً. لقد صار السيد كل شيء من أجلنا.

تكريس المذبح

إن الداعي لوجود الأسرار هو تحقيق الحياة الروحية وتهيئتها. وبما أن المذبح هو نقطة الانطلاق لكل خدمة مقدسة: سر الشكر الإلهي، المسحة المقدسة، السيامة الكهنوتية أو إتمام المعمودية فلننظر إذا كان لتكريس الهيكل علاقة بالأمور التي ذكرناها سابقاً.
في نظري إن بحث هذا الموضوع لا يعد انحرافاً ولا خروجاً. إننا ببحثنا هذا نتعمق في معالجة الموضوع وخصوصاً والقضية تتعلق بشيء أساسي، تتعلق بتتمة الأسرار المقدسة.
بعد استعراضنا للطقوس التقليدية التي يتمها الأسقف وفحصنا ما الذي يشكله الهيكل سندرس فيما بعد رمزية وفعل كل احتفال بتفصيل.
يأتزر الأسقف بمئزر أبيض يربطه حول خاصرتيه ويديه ثم يركع أمام الله، لا على الأرض العادية بل فوق مسند، ويتضرع مستنزلاً البركات الإلهية والنعم المطلوبة. ثم ينهض ويبتدئ الاحتفال. يرفع المائدة وينصبها على قاعدة ويثبتها بنفسه لا بالواسطة ثم يغسل المائدة بماء ساخن بعد أن يكون قد طلب من الله أن يمنح هذا الماء الفضيلة التي لا تطهر الأوساخ الخارجية فحسب بل تطرد الشياطين أيضاً. ثم يمسح المائدة بالعطور ساكباً فوقها أجود الخمرة وروح العطر (في نظري روح الورد)، وبعدئذ يمسحها بالميرون المقدس بعد أن يرسم فوقها إشارة الصليب ثلاثاً مرتلاً لله نشيد النبي المعروف هللويا. ثم يغطيها بقماش ابيض ويزينها بأستار ثمينة ويمد غطاء آخر فوق الغطاء الأول مدهوناً بالميرون. وهكذا يتم ستر المائدة كلياً وتصبح معدة لاقتبال الأواني المقدسة. بعد أن يفعل ذلك ينزع الرداء الأبيض ثم يلبس ألبسة رؤساء الكهنة ويتوجه إلى ملحق الكنيسة حيث توجد الذخائر الموضوعة والمعدة لمثل هذا الغرض. يأخذ الذخائر ويضعها فوق الصينية المخصصة للقرابين المقدسة ويرفعها فوق رأسه ويتقدم وسط المشاعل والأناشيد وأمواج البخور ووسط حاشية من المؤمنين إلى أمام أبواب الكنيسة. فيقف هناك ويأمر الذين هم في الداخل فتحَ الأبواب ليدخل ملك المجد. وفي هذه الأثناء يردد المؤمنون والمرتلون الكلمات التي قالها داود والتي رددتها ألسنة

الملائكة أثناء صعود المخلص (مزمور 23: 107). فتنفتح الأبواب إلى المائدة يضع الصينية فوق المائدة ويرفع غطاءها ويأخذ الذخائر المقدسة ويضعها في علبة مقدسة موضوعة فوق المائدة مخصصة لحفظ الذخيرة. ثم يسكب فوقها الميرون ويضعها في المكان المخصص لها. ويجب أن تكون العلبة على المستوى اللائق بالكنوز الثمينة التي ستوضع فيها. من هذا التاريخ يصبح المكان بيتاً للصلاة والمائدة مخصصة للذبيحة، وتصبح مذبحاً غير مصنوع بيد.

رمز طقوس التكريس

بتفصيلينا لما يجري أثناء التكريس سنبين لماذا حصلت هذه الأفعال، ولماذا حصلت المائدة على هذه النعمة بفعل رئيس الكهنة، ولماذا صارت المائدة مذبحاً. هذا العرض وهذا العمل الخارجي اللذان يبدأ بهما الأسقف يرمزان إلى مذبح بشري. يقول النبي داود أن يتطهر الإنسان من كل دنس ويصبح ابيض كالثلج يتراجع ويعود إلى ذاته ويدخل الله روحه ويجعل قلبه مذبحاً" فانك أنت قوتي وملجأي" (مزمور 30 : 3).

يأتزر الأسقف ثوباً ناصع البياض ويربط حول ظهره، وبعد أن يمثل المذبح بشخصه وهو واقف أمام باب الهيكل يمد يد المعونة إلى بيت التقديس. هكذا يفعل المهندسون قبل البدء بعملهم. ما رسمه الأسقف في عالمه الداخلي يسلمه إلى اليدين لتحقيقه في المادة.

ينقل بعض الرسامين رسومهم إلى القماش. أن فنهم ينحصر في نقل الألواح. وبعضهم يكتفي بما يذكرونه من مخلفات الخيال فينقلون ما يرونه في داخلهم وما تتأمله أرواحهم يحدث هذا مع كل صاحب فن ومهنة. ولو كان بالإمكان رؤية روح الفنان لرأينا فيها كل ما يفكر بخلقه في عالمٍ خالٍ من المادة. فالأسقف يقوم مقام المثال بالنسبة للمذبح لا لأنه فنان بل لأنه هيكل الله. إن الطبيعة الإنسانية وحدها تستطيع أن تكون هيكلاً حقيقياً من بين الكائنات المنظورة، وكل ما يصنع بالأيادي البشرية ما هو إلا كمثيل لذلك المثال وتلك الصورة. لذلك كان من الضروري أن يقدم المثال بهذا الشكل أمام الصورة المطلوب إيجادها وان تترأس الحقيقة عملية التكريس. إن القائل: "أي مسكن يبنيه لي سأسكنه وسأبقى فيه" (أعمال 7: 49) يقصد كما يبدو لي أن من أراد أن يكون نافعاً للغير عليه أن يبتدئ بمنفعة نفسه، وان من يتمتع بقدرة تهب مثل هذه الفضيلة الكبرى إلى الكائنات الحية عليه قبل كل شيء أن يستفيد منها أولاً. ويفرض الرسول بولس على الأسقف بوضع النظام في بيته قبل أن يفكر بتنظيم الشعوب والمدن، وان يسلك بموجب العقل الصحيح قبل أن يحاول إدارة البيت (1 تيموثاوس 3: 2و5).

فالأسقف يحتاج إلى الله ليتم العمل الذي يقوم بتحقيقه، إذ لا يمكن تحقيق أي عمل بدون المساهمة الإلهية وخصوصاً في الأمور التقديسية حيث كل شيء متوقف على الله وعمله. وبما أن معلمنا المشترك لم يلب حاجات خدامه لا بواسطة ممثلين ولا بواسطة وسطاء بل جاء بذاته وأعلن سبيل خلاصنا فلذلك يجب على الأسقف أن يثبت المائدة بيديه كتلميذ خاص به، أن يثبت هذا النبع لهذه البل من الخلاص. وهذا يفعله ويتلو في الوقت نفسه المزمور" أريد أن أمجدك يا الهي وملكي" انه نشيد عمل النعمة واعتراف بجميل خيرات الله الباهرة. فإذا كان علينا أن نشكر الله على كل شيء فعلينا كما يقول الرسول بولس أن نشكره قبل كل شيء على مواهبه الرئيسية الخيرة. ثم يتلو المزمور" الرب يرعاني فلا يعوزني شيء" (مزمور 23: 1). لا يمجد هذا المزمور صلاح الله فحسب بل يرمز إلى الأسرار. انه في الواقع يشير إلى المعمودية، إلى المسحة، إلى الكأس إلى المائدة حيث يستقر الخبز المقدس. تُسمّى المعمودية في هذا المزمور" مياه الراحة"، "مكان خضرة". وكاتب المزامير يعبر فيه عن أمله بالوصول إلى هذا المكان بقيادة الله. في الواقع إن الخطيئة تحمل معها موكباً من الشرور للذي يجسر أن يقترفها وتغطي الأرض بالعليق. لهذا تسمى المعمودية التي تقضي على الخطيئة بالنسبة لآلام الحياة التي تهدي وبالنسبة للعليق "مكان خضرة، وأخيراً تسمى مكان راحة لأننا في المعمودية نحوز على الخير الأسمى ونرتاح بالسير في طريق الله. وتسمى المعمودية في هذا المزمور "مياه راحة" لأنها كما يبدو لي تحقق رغبة الجنس البشري. أنها الماء التي اشتاقها الكثيرون من الأنبياء والملوك.

عندما يسجد الأسقف أمام الله ويسأله ضارعاً لا يفعل ذلك داخل الهيكل. لماذا؟ أليس لان الهيكل لم ينل بعد قداسة التكريس؟ أليس لأنه غير مؤهل بعد للخدمة؟ أليس لأنه غير جدير باستقبال من يصلي ولم يصبح بعد بيتاً للصلاة؟ إن موسى كان يخلع حذاءه عندما كان يدوس أرضاً مقدسة حتى لا يحمل معه شيئاً يكون فاصلاً بينه وبين الله، وقد عاهد الشعب العبراني الله انه لن يدوس أرض المصريين إلا والأحذية في رجليه.
عندما ينتهي هذا الطقس يطهر الأسقف المائدة المقدسة بالماء المقدسة. من الضروري قبل أن نخصص المائدة لسر من الأسرار أن نجردها بالتطهير من كل اثر للروح الخبيث لان ظالم الجنس البشري جعل من الإنسان، ملك الطبيعة عبداً، وباستعباده استبعد الكائنات كلها لذلك قبل أن يستعمل الكاهن الماء للمعمودية يجردها مسبقاً من كل اثر للشيطان بالصلاة، ثم يتلو الكلمات التقديسية. وللسبب ذاته يغسل الأسقف المائدة بالماء الحاوي قوة التنقية. وهكذا يحدد الطريق الذي يجب أن نسلكه نحو الخير، أي بالابتعاد عن الشرير لهذا يرتل المزمور المنطبق على الشرور البشرية" تغسلني فأبيض أكثر من الثلج" (مزمور 50). ثم يقدم الشكر لله ويمجده ويكرر ذلك في كل احتفال لأنه يجب أن نعمل كل شيء لمجد الله وعلى الأخص الأسرار لأنها جمة الفوائد وتصدر عن الله وحده.
لكي نصبح جديرين بنعمة الله لا يكفي أن نتنقى. يجب أن نبرهن قدر الامكان عن فضيلة مطابقة للتنقية. وهذا شرط أساسي لنكون محظيين لدى واهب هذه النعم. إن الله ينشر في الواقع بركاته لا على الذين ينامون في أحضان الكسل بل على الذين ينادونه متضرعين. يساعد من يكافح، ويهب نعمة الفطنة لمن يفتشون عليها بطرقهم الخاصة. أي علينا أن نظهر رغبتنا في كل شيء ليس بالتمنيات بل بالجهاد الشخصي لهذا السبب قبل أن يدهن الأسقف المائدة بالميرون الذي يستنزل عليه نعمة الله يعطرها بالعطور والخمرة، مواد عطرية للبشر، الواحدة تبعث السرور والثانية تشدد الحياة. انه يقدم المادتين ليدلل على انه يقدم ما يستطيع الإنسان تقدمته، وانه يضحي له المفيد واللذيذ ما دام الله قد قدم الحياة وبغزارة لا من أجل خير الخلاص والقيامة بل من أجل الملكوت والغبطة الأزلية.
يدهن الأسقف المائدة بعد انتهاء الطقس بالميرون المقدس الحاوي كل فضيلة التقديس والذي يجعل المذبح جديراً ومخصصاً للذبيحة. ولان المخلص استعمل الكلام واليد في الذبيحة أخذ الخبز وبارك (متى 25: 26) لذلك نفعل ما فعله. فالكاهن يتلو في الحقيقة الكلمات ذات الفعالية العظيمة. كان المسيح يتلوها: افعلوا ذلك لتذكاري (لوقا 22: 19) إن الميرون المقدس ينوب مناب اليد لأنه، حسب قول القديس ذيونيسيوس، يدخل يسوع المسيح. الرسل أنفسهم استخدموا في مثيل هذه الحالة أيديهم. كان ذلك من امتيازاتهم أمّا خلفاؤهم فيسرعون إلى المسحة لأنهم لا يستطيعون أن يقدموا إلا صوتهم. كانت الهياكل للكهنة الأولين أيديهم أما لخلفائهم فالمسيح يبني بواسطتهم البيوت المعدة للمؤمنين.
أثناء نشر الكاهن للميرون المقدس على المائدة لا يرافق الطقس كلام كما في الطقوس السابقة. يكتفي بترنيم نشيد مؤلف من بعض العبارات" هللويا" موحى من الأنبياء القديسين. انه لمستحب أن نمجد بكلام كثير ما تحقق ولكن يجوز أن نختصر أناشيدنا إلى كلمات نرددها لنحقق تمجيد ما نستهدفه. يليق كما أرى أن نعرض مطولاً الأمور التي حصلت سابقاً والتي ستحصل فيما بعد حتى تحيي الكلمات ذاكراها في الحاضرين. هكذا فعل الأنبياء حتى يوحنا. لكن عندما تحدث هذه الأمور شعورياً، عندما تتم حوادثها أمام أعين المؤمنين فلا حاجة للكلام إلا للتعبير عن الفرح والعجيبة. ابتداء من يوحنا لم نعد بحاجة إلى مرسلين ما دام مَن أعلن عنه قد ظهر. لم يكن على يوحنا إلا وان يعلن ويمجد من نزل على الأرض وظهر للملائكة الذين رتلوا بصوت واحد المجد لله في العلى. والأسقف للسبب نفسه عندما يرى المحسن حاضراً لا يستدعي النعم التي منحت بصلاته ولا يعدد خيرات التنازل الإلهي المشعة أمام العيون بل يكتفي بإظهار ابتهاجه بهذا النشيد السري.
بما أن كل نعمة المائدة تأتي من الميرون المقدس فمن الضروري أن تكون المادة التي تقبل التقديس أهلاً لمثل هذه النعمة لتصبح فعالة كما هي النار والنور بحضور مائدة مؤاتية لذلك. فاسم المخلص لا يمكن أن يكون له النعمة ذاتها على كل الشفاه التي تستدعيه. لهذا نرى الأسقف لا يستعمل غير عظام القديسين لدهنها بالميرون كشيء جدير فقط بمثل هذا الكنز من النعم. يدهن الأسقف العظام ويضعها في جسم المائدة وهكذا يكتمل المذبح.
لا شيء كالشهداء في صلاتهم الوثقى مع المسيح. أنهم يشبهونه بالجسد والروح وطريقة الموت وفي

كل شيء. عندما كانوا أحياء كان المسيح فيهم وعندما ماتوا لم يترك بقاياهم المقدسة بل ظل متحداً بروحهم وهكذا اتحد واختلط بهذه المادة، بهذا الغبار الجامد وإذا كان بالامكان امتلاك الله في مكان الأرض فالمكان هو عظام القديسين.
عندما يصل الأسقف إلى عتبة الكنيسة بذخائره يفتح لها الأبواب بالكلام ذاته وبإنشاده لها يدخل المسيح ذاته فيقدم لها التكريم الذي يقدمه للقرابين المقدسة. وفي الواقع إن هذه الذخائر هي الهيكل الحقيقي. البناء ليس إلا مثالاً فمن الضروري أن نضيف هذه العظام إلى البناء لتكملته كما يكمل العهد الجديد القديم.
بعد انتهاء الاحتفالات وبعد أن أصبح البناء مخصصاً للصلاة ينسحب الأسقف بعد أن يشعل شمعة فوق المائدة ليدل على أن الوقت وقت ذبيحة. وفي الواقع عندما تشعل المشاعل عند المساء يذكرنا المشعل بما حدث في بيت من فقد الدرهم. فقد أشعل المسيح المشعل ووجد بنوره الدرهم الضائع بين الغبار التي غطته والظلمات التي حجبته، والنائم بين الصفائح كأنه تحت الثرى، والواقع إذا نظفت البيت تكون النتيجة العثور على الدرهم وإعادة النور إلى البيت، والمشعل هو الذي اغرق البيت بالنور، يمسح الأسقف كل البناء ليصبح كله بيتاً للصلاة ويصبح الاسم موافقاً له لان المسحة المنتشرة، أي المسيح المخلص شفيعنا ووسيطنا عند الآب الذي يقدمنا لله ويصعد كالبخور صلواتنا. في الواقع الابن الوحيد للآب انتشر في عالم العبيد وعلى هذا الشكل قبل الآب مصالحتنا. ألقى علينا واقترب منا عندما اقتربنا منه ووجدنا كما يجد ابنه الحبيب. فمن الضروري أن ننشر مسحة الصلاة في كل البيت ليجذب البيت الله كما يقول سليمان الحكيم. وبما أن البناء يقال له هيكل الله، ولكي يكون في علاقة مع المسيح بالمسحة كما قبل المسيح مسحة الألوهة، اعني بالهيكل الحقيقي جسده المقدس حسب قوله اهدم هذا الهيكل.

تنازل السيّد

أراد الله أن يخلص الجنس البشري. لم يرسل ملاكاً لخلاصنا. جاء هو. لم يرسل ملائكة بل تجول بذاته بين البشر وطلب أولئك الذين سيلبون دعوته المخلّصة. لقد أعطى بتعليمه أسمى الخيرات. كان يزور المرضى في بيوتهم وكان يوزع الأشفية في كل مكان، حيناً بحضوره فقط وحيناً بوضع يديه. وهب النور للمولود أعمى، نادى اليعازار الميت منذ أربعة أيام فأقامه صوته. اظهر قوته العجائبية الخارقة فتراجعت كل القوى أمام قوته. اظهر رحمته الكبرى التي من اجلها قبل وتنازل وجاء إلى الأرض. كان من الضروري أن يتحرر المقيدون في الجحيم. لم يضع عملية خلاصهم على عاتق الملائكة ورؤساء الملائكة بل نزل بذاته إلى معتقل الجحيم. لم يضع عملية خلاصهم إلا على عاتقه. لكي ينعتق الأسرى يجب أن يُشتروا وقد انعتقوا بعد أن اشتروا بدم السيد. لقد نظفنا بدمه من الخطيئة واعتقنا من كل مسؤولية وجريرة. أن الرسول يشدد على هذه الحقيقة المفرحة عندما يكتب ويقول: "ولما طهر العالم من الخطايا، جلس عن يمين ذي الجلال في العلى" (عبرانيين 1: 3).
يسمى يسوع خادماً لأن الآب أرسله إلى العالم ليخدمنا نحن الخطأة. والعظيم انه خدمنا عندما أتى كانسان ضعيف. انه فعل ما يفعله العبد. لم يظهر بمظهر السيد انه لم يأتِ ليدين بل ليخلص العالم، وعندما يأتي بقوة ويظهر بمجده الأبوي لا كعبد بل كملك أزلي كلي القدرة. سيخدمنا أيضاً. قال ذلك بنفسه: "طوبى للعبد الذي يجده مستيقظاً" الحق أقول لكم: انه يشد وسطه ويُجلسهم للطعام، ويطوق بهم يخدمهم" (لوقا 12: 37).
إن السيد الحقيقي يأخذ شكل عبد ويخدم العبيد حتى موت الصليب وبهذه الطريقة يسود ويملك على نفوسهم. يسود بعد أن صار خادماً وضيعاً، "وضع نفسه حتى صار تحت حكم الموت، موت الصليب لهذا رفعه الله وأعطاه اسماً فوق كل اسم لكي تسجد كل ركبة فوق السماء وعلى الأرض وتحتها لاسم يسوع" (فيليبي 2: 8– 10). وقد أعلن النبي أشعيا هذه الحقيقة قبل أجيال: "أنكم لا بعجلة تخرجون ولا كمن يهرب تسيرون بل أمامكم يسير الرب ويجمعكم اله إسرائيل" (أشعيا 53: 12).

طريق السمو

إن جسدنا مادي. من الأرض أخذ والى الأرض يعود. أما حياتنا الروحية فتولد من الله. غذاء الجسد شيء، وغذاء الروح شيء آخر: الروح التي تنمو وتحتفظ بالحياة في المسيح. يتغذى الجسم بخيرات مادية. أما الإنسان الجديد، الإنسان الروحي فيغذيه السيد بجسده لهذا يعود الجسد إلى الأرض التي أخذ منها وتتحد النفس أزلياً بالمسيح الذي أخذت منه حياتها الروحية. يصبح الإنسان المتحد بالمسيح سماوياً "كما هو السماوي كذلك هم السماويون" يقول الرسول بولس (1 كورنثوس 15: 48). يصير المسيحي سماوياً لا بروحه فقط بل بجسده أيضاً. يصبح الجسد سماوياً لأنه عضو في المسيح السماوي. فكما أن المسيح الذي قام من بين الأموات" لا يموت ولا يتسلط عليه الموت" (رومية 6: 9). كذلك المسيحيون هم أعضاء حية للمسيح أنهم لا ينتهون إلى الموت بل إلى الحياة لأنه كيف يمكن أن تنتهي بالموت الأعضاء المرتبطة بالرأس والقلب الحيين أبداً؟

ما هي قيمة جسدنا وما قدرته؟ كل الأجساد غبار ورماد ولكن في أعماق هذه الأجساد غنى روحياً عجيباً يكمن فيها وهذا الغنى هو ما نسميه بالإنسان" حياتكم مختبئة بالمسيح" (كولوسي3: 3). إن جسدنا وعاء من خزف تنطوي فيه الكنوز. "ولنا هذا الكنز في آنية خزفية ليكون فضل القوة لله لا منّا" (2 كورنثوس 4: 7). إن جسدنا، هذا الطيف الخفيف الرخيص سيلبس جمالاً أزلياً عندما يتحد بالمسيح وسيكون في أحد الأيام شعاعاً نيّراً من أشعة الشمس العدلية وسيطلع الصديقون مشعين بالبهاء والمجد وسيصعقون فرحاً وتهليلاً لان خبز الحياة، جسد المسيح، النور الحقيقي سينير المختارين وسيكون مع الصديقين دائماً وسيلمع في الحياة الأخرى أولئك الذين اجتازوا حياتهم متحدين بالمسيح، وسيظهر السيد بمجدٍ فوق السحب وسيأخذ منه أولئك الذين صاروا أعضاءً من أعضائه وسيكون الله وسط آلهة، وسط مختاريه، سيكون الجميل على رأس الجمال. إن أجساد القديسين تلحد الآن وتسلم إلى الفناء لكن عندما يظهر المسيح الغالب للفناء سنعيش حينئذ أحراراً مع العادم الفساد. "نخطف جميعاً في السحب لاستقبال الرب في الهواء وهكذا نكون مع الرب دائماً" (1 تسالونيك 4: 16).

سيخطفنا السيد. لن ينتظر أن نطلبه. سيفتش عنّا بذاته حيث نكون وسط خطايانا غارقين ويرشدنا على الطريق التي يجب أن نسلكها ويحملنا على كتفيه إذا لوت ركبنا ضعفاً ووهناً، ويقيمنا بعد كل سقطة ويدعونا عندما نبتعد، ويستعمل كل السبل لخلاصنا وسيقيمها بحضوره الثاني وسيعطينا أجنحة لنطير لاستقباله وسيطير أولئك الذين يتناولون جسده الطاهر ودمه الكريم بعد الاستعداد لملاقاته. هؤلاء سيأخذون النعمة والخلاص والفرح الرباني وسيدخلون إلى الخدر السماوي المشع بالأنوار وسيتمتعون بالخيرات الأبدية الخالدة.

الحفاظ على الحياة في المسيح

لاشك أن المسيح يلد في عالمنا الداخلي الحياة به. أما الحفاظ عليها فهو من عملنا أننا بالسهر والاهتمام والرعاية سنتجنب خطر ضجور الحياة في المسيح وسنفر من هذا العالم حاملين كنزها سالماً. على المسيحيين المدعوين بالمسيح واجب واحد، أن يحفظوا نواميسه الإلهية ويرتبوا حياتهم وفقاً لإرادته. إنه واجب مقدس يثقل كاهل البشر على اختلاف أعمارهم ومهما كانت أعمالهم، أسكنوا مجاهل الأرض أم استوطنوا صحاريها أم عاشوا في ضوضاء الحياة وغرقوا في ملذاتها.

إن تطبيق الحياة المسيحية ليست من الأعمال التي تفوق قوى الإنسان ما دام الإنسان يتقوى بالنعمة الإلهية. لو كان تطبيقها من الأمور التي تفوق القوى الإنسانية لما عواقب متجاوزو الوصايا المسيحية من الله. لا احد يجهل أن المسيحي الحقيقي ملزم باتمام الوصايا المسيحية طوال حياته. من يقترب من المسيح يشتاق أن يتبعه في كل شيء ويصبح شوقه عهداً مقدساً يقيده مدى الحياة. الواجبات النابعة من تعليم المخلص هي ملك مشترك لكل المسيحيين يحققها الذين يرغبون بتطبيقها وهي ضرورية،

بدونها يستحيل على المرء أياً كان أن يرتبط بالمسيح. ما الفائدة إذا كانت الخطايا تملؤنا، إذا كانت أعضاؤنا ميتة، ما الفائدة من كوننا ولدنا بالمسيح، ما الفائدة أن ندعى أولاداً لله؟ في هذه الحالات يخشى أن يصيبنا ما أصاب أغصان الكرمة التي قطعت من الكرمة الحقيقية لتلقى في النار ليبوسها.
من رغب في أن يحيا في المسيح وقرر ذلك عليه أن يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقلب الروحي وبرأس جسد الكنيسة، بالرب. إذا رغبنا ما يرغبه المسيح فسنحقق هذا الرباط الذي هو الكل في الحياة الروحية وإذا أردنا أن يكون قلبنا ملكاً للمسيح علينا أن نروّض إرادتنا ونهيئ نفوسنا لتسر بما يُسر له. فلا يجوز أبداً أن ننساق وراء رغبات مختلفة. الضدان لا يمكن أن يجتمعا في قلب واحدٍ. الرجل الخبيث لا يخرج من قلبه غير الخبث أما الصالح فالصلاح. إن المسيحيين الأوَل كانوا يلتهبون بمثل هذه الرغبات السامية المقدسة" القلب والنفس كانا شيئاً واحداً عند جموع المؤمنين" (أعمال 4: 32).
إن المسيحي الذي لا يفكر بما للمسيح ولا ينظم حياته وفقاً لحياة السيد ولا يقدس قلبه سيلتصق قلبه حتماً بالأمور الدنيوية الفاسدة. وجد الله النبي داود " إنساناً حسب قلبه". لم يحد عن طريق الحق ولم ينسىَ وصايا الله. "عن طريق الحق لم أمل وخطاياي لم أنسَ" أيمكن أن نعيش إذا لم نعلق قلبنا بالقلب الحي الأبدي؟ أيمكن أن نحيا حياة روحية؟ علينا أن نحب وان نريد ما يريده ويحبه المسيح ليكون لنا مثل هذا التعلق الذي يهب الحياة والفرح بالمسيح.
الرغبة تسبق كل عمل والفكر يسبق الرغبة ولكي يكون قلبنا مليئاً بالأشواق الحارة المقدسة السامية، بعيداً عن الرغبات الشريرة علينا أن نبعد نفوسنا مهما كلف الأمر عن كل تفكير بطال حتى لا يكون فيها أي مكان للشيطان. قد ينجذب العقل بأمور كثيرة وكذلك النفس. قد يهتم في هذه القضية أو تلك وقد تنشغل في هذا الأمر أو ذاك لكن النافع والمفيد والمفرح هو التكلم عن الغنى الروحي والتفكر بمواهب النعمة التي نستمتع بها. من كنا قبل أن نعرف الحقيقة، قبل أن نعرف المسيح؟ ما هي الإحسانات الروحية التي تمتعنا بها بعد أن استنرنا بنور المعرفة الذي لا يخبو؟ أية حياة كانت تلك التي قضيناها تحت نير العبودية، نير الخطيئة القاسية؟ أية خيرات روحية تمتعنا بها وذقناها حتى الآن والى أية خيرات روحية نحن مدعوون؟ إلى أي ملكوت روحي، إلى أية حرية روحية ندعى؟ من يعطينا هذا الغنى من الخيرات؟ من هو جمال هذه الخيرات الأزلية؟ ما هي محبته وصلاحه للإنسان؟ عندما تستحوز على نفوسنا وعقولنا كل هذه الأفكار وتسودها فمن الصعب أن تتجه أفكارنا نحو أمور خاطئة مجرمة لان المواهب الروحية التي ستستأثر على أفكارنا ستغلب بعمقها وغزارتها الأفكار الوضيعة ولن تتركنا ننجرف وننساق وراء الأفكار البطالة المضرة.

الغنى الذي لا يَسبر غوره

أحب الله الإنسان، أحبه هذا القدر من الحب حتى " أفرغ ذاته متخذاً صورة عبد" (فيليبي 2: 7). لم يدعه ليكون قريباً منه فقط، لم يدع الإنسان العبد للخطيئة الذي أحبه. لقد نزل من السماء وفتش عن الخاطىء، عن المجرم، عن المدان، عن الضائع. فالله الغزير الرحمة يزور روح الإنسان وبزيارته يفصح عن شوقه ومحبته اللذين يكنهما نحوه. وعندما يرى أن الخاطىء الذي أحبه لا يقبله فأنه لا يبتعد عنه فوراً ولا يتأفف إذا شتمه ولا يهرب عندما يرى إن من جاء ليخلصه يهينه بل يبقى خارجاً أمام باب النفس. لا يتأفف من هذا الموقف المخزي لأنه أحبه كخاطىء وقد دفعته محبته ليصير إنساناً مثلنا، يتألم ويتعذب ويموت فوق الصليب من اجل المحبوب. أهناك ما هو أقوى من هذا التعبير عن المحبة؟ كان بامكان الله الذي أحبنا كغير متألم إلا يتألم من اجلنا لكنه أراد كرحيم أن يُحسن إلينا فاتخذ صورة عبد لكي يعبر عن محبته التي لا تحد "أخلى ذاته" وتألم وعانى عذاب الصليب وتحمل كل شيء ليعيد الإنسان الضال إلى أحضان أبيه السماوي.
إن المخلص، وهنا الغرابة والعجب، لم يتحمل العذاب الشديد فقط، لم يمت بجراحاته ودمائه بل استمر يحمل آثار جراحاته حتى بعد أن عاد إلى الحياة وأقام جسده بطريقة خارقة. بهذه الجراحات رأته الملائكة وقد اعتبر هذه الجراحات التي فتحتها مسامير الصليب أعظم وسام وكان يفرح عندما يشير إليها كآثار لآلامه. لقد صار جســده الطاهر روحياً لا وزن له ولا ثقل ولا صلة تربطه بما يميز أجساد البشر الفانية. جسد المخلص ممجد وغير فان. احتفظ المخلص بجراحات الصليب ولم يرد أن

يتخلى عنها حباً بالإنسان. بها وجد الخروف الضال واشترى الإنسان الذي أحبه لمّا كان يجرح.
إذا كانت أجساد البشر المائتة تطهر كل اثر من آثار الجراحات التي تصاب بها فكيف احتفظ الجسد الغير المائت بآثار الجراح؟ أراد المخلص أن يحتفظ بآثار الجراحات ليبقى واضحاً للجميع أن جنبه قد طعن بحربة من اجل العبيد وانه صلب من اجلهم. يعتبر السيد آثار المسامير التي بقيت في جسده مجداً لله. اتقاس محبه بالمحبة التي أظهرها ويظهرها المسيح نحونا؟ من اظهر محبة كهذه المحبة؟ أين حنان الأم من حنانه؟ من أحب عاقاً واستمر على حبه؟ من احتفظ بالجراحات التي قبلها محبة بالعاق؟ يحتفظ المسيح بآثار الجراحات حتى وهو جالس على العرش السماوي كملك ممجد حباً بنا. وبهذه الطريقة يكرم الطبيعة البشرية. المخلص يحبنا جميعاً ويدعونا إلى ملكوته. انه يعتقنا من عبودية الخطيئة ويجعلنا أبناء للأب السماوي. فتح السماء للجميع وأرشدنا إلى الطريق الذي نود أن نسلكه أعطانا أجنحة روحية لنطير إلى آفاق روحية سامية. وعندما يرى إن التوّاني قد غَمَرنَا يرجونا أن نستقيظ. حتى إن لم اذكر أسمى مثال لمحبته التي أظهرها نحونا نحن عبيده. انه لم يعطنا خيراته السماوية فقط بل وهبنا بالمناولة الإلهية كل ذاته وجعلنا هيكلاً حياً لله. إن أجسادنا هي أعضاء للمسيح والشاروبيم في السماء تسجد للمسيح رأس هذه الأعضاء.

أعضاء المسيح

لنفكر أننا أعضاءُ المسيح. أهناك ما هو أسمى وأجدى من هذا التفكير؟ عندما تسود هذه الأفكار المبهجة على نفوسنا يزداد الشوق الأزلي فينا ولن تجد الأفكار الشريرة سبيلا إلى نفوسنا. عندما نفكر بإحسان المخلص العظيم يزداد شوقنا نحو المحسن الأزلي ويصبح كثير الوهج وبهذه المحبة للرب نصبح بسهولة فعلة لوصاياه. "من أحبني حفظ وصيتي" (يوحنا 14: 15).
عندما نفكر بأننا أعضاء للمسيح يستولي علينا الشعور المدرك الكامل بالمنزلة الكبرى التي سمونا إليها وهكذا لن نسلم نفوسنا إلى الخطيئة ولن نقبل أن نخدم العاصي والعبد الضار، الشرير، ولن نفتح فمنا عندما نفكر بأننا مدعوون إلى الملكوت السماوي كأعضاء للمسيح ولن نترك لساننا يرشق الكلمات الشريرة. أيمكننا أن نجعل فمنا آلة للخطيئة إذا فكرنا أن المخلص قد صَبغ لساننا بلون الأرجوان بمناولتنا لدمه الكريم المقدس؟ أنجيز لأعيننا وهي التي رأت جسد ودم المخلص أن تجول في الأماكن المسببة للخطيئة؟ إذا حافظنا على تفكيرنا حياً بأننا أعضاء مكرمة للمسيح تحوى كقارورة دم أو بالأحرى كل السيد فلن نحرك أرجلنا ولن نمد أيدينا إلى ما يسبب الخطيئة.
أننا أعضاء للمسيح والمسيح في داخلنا. ليست الوحدة التي لنا مع ثيابنا وجلدنا وعظامنا كالوحدة التي لنا مع المسيح، مع رأسنا الروحي ونحن أعضاؤه. يستطيع المرءُ أن يجردنا من ثيابنا قسراً عنا. يمكنه أن يجردنا من أجسادنا أما عن المسيح فلا إذا لم نرد نحن. لا يستطيع ذلك لا إنسان ولا شيطان. "أيقنت أنه لا موت ولا حياة، لا رؤساء ولا قوات لا حاضر ولا مستقبل لا علو ولا عمق لا خليقة أخرى تستطيع أن تفصلنا عن محبة المسيح يسوع (رومية 8: 38– 39). أن الشهداء هم البرهان. لقد انتزع الشيطان بيد الجلادين أحشاءهم وسلخ جلدهم وفصل أعضاء أجسادهم وسحق عظامهم لكنه لم يتمكن أن يبعدهم بكل ما لديه من أحابيل عن المسيح. كان عمله مشجعاً لهم في إيمانهم وجاءَ بنتيجة معكوسة فالتصقوا به التصاقاً أوثق ومكن وحدتهم به وجعلها وحدة مستمرة إلى الأبد.

احترام نفوسنا

أهناك ما هو أجل من الجسد الذي يتحد به المسيح بالمناولة الإلهية؟ عندما ندرك أي بهاء مستيكي يحوزه من هذه الوحدة السرية ونفكر بالشرف الذي سما إليه فمن الطبيعي إن نحتفظ بالجسد نقياً مقدساً نظيفاً ونكرمه. فإذا كنا نوجه كل اهتمامنا وعنايتنا لنحافظ على الأواني المقدسة بعيدة عن كل

دنس ووسخ فأحر بنا إلاّ ندنس الجسد هذا الهيكل الحي. لا يوجد ما هو أقدس من الإنسان في العالم. فالله ذاته لبس الطبيعة البشرية، وصار في كل شيء شبيهاً بنا ما خلا الخطيئة. لنتذكر لمن "كل ركبة في السماء وعلى الأرض وما تحت الثرى تنحني" (فيلبي 2: 10) ومن سيأتي "فوق السحاب بقوة ومجد عظيمين" ببهاء لا يوصف؟ من غير ابن الله، وابن الإنسان في وقتٍ واحدٍ. نستطيع نحن أن نلمع كالشمس وان نرتفع في ذلك اليوم فوق السحب ونرى جسد الله، الإنسان الممجد ما دامت الطبيعة البشرية قد سَمَت إلى هذا القدر في شخص المسيح.

عندما سيظهر السيد سيحيط به مصف العبيد الصالحين. يا للمشهد العجيب! انه لعجب باهر أن يرى الإنسان جموعاً عديدة من الأقمار فوق السحب وإشعاع المؤمنين، وضياء السيد وجوقة هؤلاء الرجال. إنه لعجيب أن يرى هذا الحفل الأزلي، هذا العدد العديد من الآلهة القديسين الذين يحيطون بالإله الحقيقي. أن يكون الجميلون حول الجميل والعبيد حول السيد الصالح. لن يتردد السيد في أن يعطي قسماً من مجده الخاص وبهائه إلى عبيده الصالحين. لن يخاف على مجده من النقصان مهما كثر القديسون الأبرار الوارثون لملكوته، يستطيع ملوك الأرض أن يغطوا كثيراً لمحكوميهم ولكنهم لا يجعلونهم قط ورثة في التاج ولا شركاء في سلطتهم. أمّا السيد الأزلي، الملك الكلي القدرة فلا ينظر إلينا كعبيد ولا يعطينا كرامات تليق بالعبيد. أنه ينظر إلينا كأصدقاء ووفقاً لناموس المحبة يصبح ما له ملكاً لنا. لا يعطينا لا هذا ولا ذاك بل الملكوت الأزلي ويلبسنا الإكليل الخالد. إن بولس الرسول يعبّر عن هذه الحقيقة المفرحة تعبيراً حياً ويريدها أن تنحفر في قلوبنا "إذ كنا أبناء وارثين فنحن ورثة الله ومشاركون للمسيح في الميراث" (رومية 8: 17) "وإذا صبرنا فسنملك معه" (2 تيموثيوس 2: 12).

أي مشهد أبهى وأجل من مشهد السيد والوارثين معه؟ جوقة من المغبطين وجموع من البشر الطافحين بشراً، وشمس من العدل اللامعة من المجد الإلهي ستنزل إلى الأرض من السماء في اليوم الأخير وستظهر الأرض شموساً أخرى ستسرع لملاقاة شمس العدل وإذاك سيمتلئ الكل بالنور، وسيكون آنئذ مع المسيح الذين قضوا حياتهم في دراسة كلام الله، ومع الفقراء بالألم والمحبة ومع المسيح بالرغبة والجد، سيكون مع المسيح أولئك الذين تشبهوا بآلامه وأعطوا نفوسهم للسيف وأجسادهم للجلد والحريق والموت يشيرون إلى الجراحات في أجسادهم المشرقة بالمجد والتي قبلوها راضين من أجل المسيح ويرفعون آثار الجراح كرايات لعلبتهم وظفرهم. كل هؤلاء سيشكلون الفئة الظافرة التي غلبت بجراحاتها كما غلب الملك الأزلي لأنه ذبح. نرى يسوع بالآلام متوجاً بالمجد والشرف (عبرانيين 2: 9). عندما ندرس هذه الأمور ونفكر بها سنرى كم رفعنا السيد الجزيل الرحمة عالياً. واحتراماً لهذه الرفعة لذواتنا سنبتعد عن الخطيئة.

أعداء التوبة

إن دراسة الأمور الإلهية السامية، ستحمينا من الخطيئة، وستساعدنا حتى ولو سقطنا، على النهوض، لأنه عندما يتوفّر هذا القدر من الوسائل لخلاصنا فمن المخيف إلا يعود الإنسان إلى ربه بعد الخطيئة، وألا يقبل أن يتوب خجلاً وخوفاً وأن ينظر إلى الطريق كطريق صعب متعب وأن يعتقد أن الله لن يقبل توبته مهما كلف الأمر لأنه غاضب. إن الإيمان بأن رحمة الله لا تحد جدير بأن يعتق النفس من هذا التضعضع المدمر. فإذا كان الإنسان يعرف مقدار صلاح الله فلماذا هذا الشعور بصعوبة التوبة عن الخطايا التي فعلها؟ هذا هو فن الشرير وهذه هي آليته، عدو الإنسان العام، الشيطان. فنه أن يجر الإنسان إلى الخطيئة، فيلقي بنفسه في أحضانها بوقاحة وجرأة. العدو غير المنظور يدخل إلى النفس الخاطئة بعد اقتراف الخطيئة التي ارتكبتها الشعور بالحياء والخوف ليدفعها من جديد إلى أحضانها حتى تغرق هناك فلا تستطيع أن تنتصب البتة. يحاول بالخجل والخوف أن يبعده عن الله نهائياً وأن يرميه في هاوية الضلالة.

لذلك علينا أن نحصن ذواتنا ضد الجرأة على الخطيئة، وضد الخجل الخوف أيضاً اللذين يعقبان جرم اقتراف الخطيئة. الخوف بعد اقتراف الخطيئة لا يقود إلى الخير بل يشكل تخديراً للنفس. الخوف والخجل لا يفيدان شيئاً. أننا لا نخجل من جراح الخطيئة ولا نطلب أن تجد من يشفينا بل نحاول بالخجل أن نبعد أعيننا عن المخلص كما فعل آدم بعد المعصية إذ اختبأ خوفاً وخجلاً. كان آدم مجرحاً

بجراحات قتّالة من جراء الخطيئة، وكان يتهرب من يد الطبيب، وكان المفروض أن يسعى إليه، ويفتش عنه، وألا يترك الخطيئة تنتصر، وألاّ يخفي ضعفه، ويلقي الذنب على المرأة وحدها. إن قايين بعد ارتكابه جريمته حسب إن عين الله لا تراه، حسب أن الله لا ينتبه لعمله. الله يعرف كل شيء ويراقب كل شيء.

بعد الخطيئة يولد في النفس حزن يقود إما إلى النهوض وإما إلى الدمار والضياع. الحزن الذي عاناه بطرس بعد نكرانه للمسيح، يشهد على أن الحزن كان من أجل المسيح. لقد تألم بطرس وبكى بكاءً مراً، وأعاد بدموعه رتبته الرسولية إلى جانب المسيح. أما الحزن المدمر القائد إلى الفناء والعدم فهو الحزن الذي عاناه يهوذا العبد الغاش. في اللحظة التي كان فيها المخلص يحرر العالم من عبودية الخطيئة بالصليب، كان يهوذا بحزنه المدمر العنيف يفقد الرجاء بتنقية روحه، فيدفع بنفسه لحبل المشنقة وينتحر. لنحزن على عدم الاعتراف بالجميل نحو الكلي الصلاح. إن حزناً كهذا لا يحمل أي ضرر للنفس. يصاب البعض بعد الخطيئة بالضّجر ويشعرون بالمرارة والألم النفسي، وبما يضغط صدورهم وقلوبهم ويشعرون بألم عميق ويعتقدون إن حياتهم عبء ثقيل لا يحتمل. أن هذا الحزن عدو مدمّر يقود النفس إلى الموت الأبدي.

ماذا يجب أن نفكر؟

إن الحزن الذي يلي الخطيئة، الحزن المليء بالنعم والمواهب الروحية يتأتى من المحبة للمسيح. لنغوصنّ في هذه الأفكار التي يملؤها المسيح، وندرس كثرة رحمته. يجب أن تسود الأفكار التي للرب على مخيلتنا، وأن تسري في نفوسنا وتصبح شغل عقلنا الشاغل. لنفكرنّ بالرب ولنتكلم عنه في وسط الجماعة. لنشعر بالفرح عندما يكون الكلام المخلص، ولنحاول أن يكون اهتمامنا محصوراً بالرب لأنه بالدرس المتواصل سيحتل المخلص قلوبنا وسيملك على أرواحنا. لكي تبقى النار ملتهبة يجب أن تبقى على اتصال دائم بالمادة المحرقة، وكذلك نحن لكي نشعر بنار المحبة علينا أن ننجذب بالمسيح ونوجه فكرنا نحو شكله الإلهي.

إن فكر الإنسان ينجرف بسهولة بالأمور الشريرة. اللذة الحسية والأفكار الوضيعة تسبب رغبات تكوين الإنسان. والحواس التي نشعر بقوتها تدفع دائماً إلى تفكيرات خاطئة تصبح بسهولة الرفيق الدائم للإنسان، وتخدع القلب لأنها تبقى فيه مدة طويلة، ولأنها توقظ فيه لذة كاذبة. الفكر يتجه بصعوبة نحو الأمور الروحية، وذلك بعد دراسة مستمرة وبحث طويل. إن محبة لاهبة فقط تستطيع أن تبعث في الإنسان فكرة الخير المفيد الذي لا يسر الإنسان العتيق، وبالمطالعة الروحية الدائمة والمحاولة المستمرة للتخلص من ربقة الخطيئة، نستطيع أن نتخلص من الأفكار ذات المضمون الخاطئ والقائدة إلى الخطيئة. علينا أن نفكر بالأمور الحقيقية بدلاً من الأمور الظاهرة، فالأمور الصالحة والمرغوبة لله ستستأثر بعقلنا بدلاً من الأمور المسلية التي تخفي كثيراً من التجارب.

لا نعجبن كيف تغلب الأفكار الشريرة الأفكار الروحية بسهولة. ولماذا تكثر الأفكار الوضيعة في البشر. لا يكفي أن يعرف الإنسان الحقيقة حتى يصبح رجلاً روحياً. عليه أن يفكر بالحقيقة وان يتعمق فيها. لا يحتل الحقيقة من يعرف الحقيقة معرفة فقط، بل الذي يتمكن من تحقيقها عملا في حياته اليومية. فكما أن الغذاء والسلاح والدواء واللباس لا تفيد من يملكها فقط بل تفيد من يعرف أن يستعملها كذلك المعرفة. فإذا كانت الأفكار الوضيعة تشغل عقل الإنسان وتتطبع فيه، والأفكار الروحية تمر به ولا تجد لها مكاناً، فما هو وجه الغرابة في عدم سيطرة الأفكار الروحية على قلب الإنسان، إذا كانت هذه الأفكار تُطرح خارج النفس، تبقى النفس مملؤة بمخزنات الشرور والأفكار الخبيثة؟ من يجهل فن البناء لا يستطيع أن يبني، والطبيب الذي يجهل فن الطب لا يعرف أن يداوي، والمسيحي الذي يبقى في عالم النظر دون أن يتروض على الحياة المسيحية، لا يستفيد شيئاً من معرفته للحقيقة ما دام لا يستطيع أن يبني بناءَها الروحي. إن الجندي يستعمل سلاحه ساعة الخطر ضد العدو. والفنان يستعمل فنه ليصنع ما يستطيع أن يخلقه فنه، ونحن، فلنستعمل الأفكار الصالحة كمستشار، ولنتعلم لا ما يجب أن نعرف فقط، بل أن نتعلم ونؤمن بما نتعلمه ولنحترق بالمحبة الحقيقية. وتفرض هذه المحبة درساً خاصاً واهتماماً نفسياً. فالنفس عندما تهتم وتنشغل بالأمور السيئة

تنجرف إلى الهاوية. فمن الضروري إذاً أن يطرد المسيحي كل عدو وشرير، ويسعى ليتغذى بالأمور الروحية السامية.
من السهل أن يشتهي الإنسان الفضيلة وأن يريد ويفضل الحياة المسيحية. لا يحتاج لا إلى تعب ولا إلى جهود خاصة في تفضيله. لكي يحقق هذه الحياة الروحية ويتقدم، عليه أن يتألم وأن يعمل مدى حياته بنظام وترتيب. نقبل بإرادتنا الصراع الروحي، فلماذا يصعب على إرادتنا أن تتحمل التعب وألم الصراع؟ إن ما يقوينا ويشددنا في الصراع، هو شوقنا الشديد للأمور العظيمة السامية. وهذا الشوق يجعل الآلام خفيفة ومسرة حتى عندما تكون حادة ومضنية. عندما نوجه فكرنا إلى الأمور الروحية ونعمل لإدراك الجمال الحقيقي الموجود في الحياة المسيحية سنوقد الشوق في قلوبنا. لقد اشتعل الشوق في نفس داود بالهذيذ الدائم في الله. لقد اشتعلت بالنار الإلهية "لقد استعر قلبي في داخلي وبهذيذ اشتعلت النار" (مزمور 38: 4). وفي مزمور آخر يغبط الإنسان الذي "في ناموس الرب يهدّ النهار والليل".

فكرنا في الله

يا لصلاح الله الذي لا يعبر عنه. إن الله لا يحبنا فقط بمحبته التي لا تحد بل يطلب أيضاً محبتنا ويعتبرها جديرة بالتقدير ويفعل كل شيء لينالها. لماذا خلق السماء والأرض والشمس وكل العوالم المنظورة والجمال الذي لا يبارى في العالم غير المنظور بإشارة واحدة؟ لسبب بسيط. لكي نرى وسط الخلائق حكمته الكلية فنحبه. يصير البشر أهلاً للمحبة عندما يظهرون صلاحاً وحكمة. تنازل الله راضياً وصار إنساناً ليدلل لا عن محبته فقط بل لأنه يريد محبتنا. عمل كإله وإنسان واستعمل كل الطرق ليجذب إليه قلوبنا ويشعلها بنيران محبته الإلهية. ناموس الله ناموس صداقة ويعمل ليجعلنا أصدقاء شكورين. لذلك وجب أن يكون فكرنا في الله وهذا ليس بصعب. لا نحتاج إلى سكب العرق ولا إلى تعب ولا إلى إنفاق المال ولا إلى المرور بخطر العار ولا إلى أي شيء يقود إلى المضرة. من الممكن أن نقوم بعملنا وان نفكر بالله. يمكن أن يقوم المرءُ بمهنته وان يحب الله في وقتٍ واحدٍ، يستطيع القائد أن ينصرف إلى عمله دون أن يكون هناك يمنعه من التفكير بالله.
لكي يفكر الإنسان بالله لا يفرض أن يلتجئ إلى الصحراء، ولا أن يغّير غذاءَه، ولا أن يستعمل ثياباً غير التي يستعملها، ولا أن يفرض على نفسه ناموس الحرمان فيؤثر في صحته ولا أن يقوم بأشياء اضطرارية. يستطيع أن يفكر بالله دون أن يخسر شيئاً، يستطيع ذلك في بيته. وعندما تفرض محبة الله التعب والكد فعلى الإنسان أن يتعب من أجل هذه المحبة. نحن بشر وقد أعطينا العقل لنفكر فلماذا لا نفكر دائماً بالأفضل أي بالله الذي أخذنا منه العقل؟ يفكر الكثيرون بمستقبلهم، يفكرون بالفن، بالثروة وبأمور جوهرية أخرى. فلنشغل عقلنا بأفكار صالحة فالنفس التي تهتم بالصلاح تحصن نفسها بسهولة ضد الشر وتحافظ على نقاوة وقداسة النعمة المعطاة لنا بالأسرار. والأفكار الصالحة تمنع دخول الأفكار الشريرة. ثم إن من يفكر بالصالحات فمن المسلم به انه لن يبقى في حالة من الفكر فقط بل يتعداها إلى العمل فيفعل الأفضل والأسمى في حياته وبالعكس فالشرور والأهواء تنمو بسهولة في نفس من تشغل عقله الخطيئة والشر.
إن الاهتمام بالأفكار الصالحة التي تدفع المسيحي إلى الحياة الروحية الفاضلة حريّ بكل تقدير. فالسيد الذي أظهر هذا القدر من الرحمة، وفعل كل شيء من أجل خلاصنا يغبط كل من يحيا حياة سامية مرتبطة وثيقاً بالأفكار الصالحة. يغبط الفقراء بالروح والحزانى من أجل خطاياهم والودعاء والجياع والعطاش إلى البرّ والرحماء والأنقياء القلوب وصانعي السلام وكل الذين يصيرون راغبين في الاضطهادات من أجل المسيح والذين يهانون ويقرعون الأعداء. كل هؤلاء سيتمتعون بالحياة المغبوطة. فإذا كان بعث الإنسان الروحي الجديد يبتدئ بالأفكار السماوية المقدسة فالإكليل الذي لا يفنى يحاك في الوقت نفسه في السماء. إن الدرس العقلي للحقيقة سيكون الطريق الأمين والسلّم نحو السماء، نحو الحياة الخالدة المغبوطة.
إن الدرس العقلي ضروري للتقدم الروحي. أولئك الذين يدرسون بعقولهم حياة الرب يحصلون على "المسكنة بالروح" على أن "لا يفكروا فوق ما ينبغي بل يعقلوا تعقل الحكمة" (رومية 12: 3) يفكرون أن المسيح صار فقيراً من أجلنا. أخذ صورة عبد وعاشر العبيد واتخذ جسداً وهو السيد،

وفضّل الفقر وهو الإله الذي لا حدّ له الواهب الخيرات الغنية واحتمل الإهانة وهو ملك المجد، وطاف مقيداً وهو الذي حلّ عقالات الخطيئة واعتق الجنس البشري منها، وحوكم من متجاوزي الشريعة وهو واضع الشريعة ومتممها. لقد رأى من أعطاه الآب "كل سلطة"(يوحنا 5: 22)، رأى قضاة ظالمين وشعباً بكامله يثور حانقاً ضده ويصفح لسفاح ولص. فالمسيحي الذي يفكر بكل هذه الأمور لا يمكنه إلا وأن يحطم كبرياءَه ويتضع. يفاخر المتكبر بما يقوم به لكنه عندما يفكر ويدري حياة المسيح وأعماله العظيمة فأنه يرى أن أعماله لا تساوي شيئاً ولا يمكن أن تكون مجالاً للفخار، يراها غير جديرة بتحريره من عبودية الخطيئة ويرى انه غير أهلٍ ليحافظ على الحرية الروحية مستقلاً. إن المخلص قد اعتقنا من الخطيئة بدمه الكريم ووهب لنا هدية الحرية الكبرى.

أمثلة الجهالة

عندما نفكر بما فعله المخلص ليخلصنا وأي تنازل تنازله لا نستطيع إلا وأن نحزن ونبكي على التواني والنوم الروحي اللذين يستوليان علينا. عندما نخسر كنزاً أرضياً نشعر بالحزن العظيم وتصبح ذكرى الخيرات التي فقدناها سبباً لتسكاب الدموع من مآقينا. فلماذا لا نحزن عندما نفكر بالغنى العظيم الذي فقدناه وطرحناه ونحن نستطيع أن نملك هذا الكنز كاملاً وبكل تأكيد؟ إن ظهورنا عاقين نحو من أحسن إلينا يثير الحزن في داخلنا. كم يجب أن يهزنا شهورنا أننا ظهرنا عاقين كسالى، لا نحو إنسان بل نحو الرب ذاته الذي قابلنا بهذا القدر من الرحمة والمحبة؟

محبه الله! إن الربّ نزل من السماء إلى الأرض مدفوعاً بهذه المحبة وطلب أرواحنا. عاش بيننا وعاشرنا متخذاً شكلنا وصورتنا. صار شبيهاً بنا ليحرك ويدفئ محبتنا. ظهر كانسان وإله ليوحي لنا بالمحبة ويساعدنا لنعيش بالمحبة. جاء السيد وفتش عنّا فوجدنا. لا يريد أن يبقى مكان فارغ في قلبنا دون أن يملأه بحضوره. جاء كمحسن وأخ، جاء ودفع ما كان يجب أن ندفعه نحن. فعل كل هذا لا بإشارة بسيطة كما فعل من قبل في خليقة العالم بل احتاج إلى أن يتألم ويسكب العرق. لم يكن للألم أي حق على السيد البريء من الخطأ، ومع ذلك نراه قائماً وسط العذاب، وسط الإهانة، وسط العار مليئاً بالجراحات يلفظ أنفاسه ويموت أفظع الميتات. ماذا نفعل نحن؟ أنشعر بالإحسان العظيم؟ من المؤسف أننا لا نفكر بالنعمة السامية للرب ولا بمحبته التي يعبر عنها في كل مكان إننا لا نطلب الأمور التي نغّير بها حياتنا بل نميل إلى البطل الذي يمقته الرب. نملك ما يمنعه الرب. نتهرب من الأمور السامية التي ينصحنا أن نتبعها وننميها في حياتنا. إن تصرفنا ليس تصرفاً عاقاً فحسب بل خبث. أعاقون وخبثاء! أي جديرون بالرثاء والدموع. يا للاهتمام بالأمور البطالة الخاطئة! أنعتبرها جديرة بكل اهتمامنا لدرجة نحتقر الرب من أجلها وكل الأمور الكبرى السامية والأزلية التي يدعونا إليها الربّ الجزيل التحنن. إذا كنا نحن لا نهتم بالأمور الخالدة التي كشفها لنا وكشف فيها حقيقته وأظهر عنايته ومحبته العزيزة فمن يهتم؟

إننا نهتم بالأمور المادية وبما هو ضروري للحفاظ على قوتنا. وننهمك بالكلام والأعمال والمهن. نصبح فلاحين ويصبح البعض جنوداً، وآخرون تجذبهم السياسة، ومنهم من يمتهن مهناً أخرى. إننا لا نضيع الوقت فنمدح أصدقاء العمل. كل هذا الاهتمام، وهذه الرغبة وهذه المحبة للعمل، يستهدف الحياة المادية. أما الحياة من أجل الأمور الروحية الصالحة فقلما تستهوينا. وهكذا نكون دون أولئك الذين يعملون من أجل الحياة المادية، الذين يعتبرونها فوق الحياة الروحية. أننا دون أولئك لأننا لا نهتم بالأمور السامية غير الفانية الأزلية كما يهتم أولئك بما يرونه فوق المثل السامية، ولكي نلتفت إلى هذه الأمور السامية نزل السيد من السماء فاستحالت الأرض بحضوره سماءً وصار طاغي العالم، صار الشيطان أسيراً يدوس رأسه أولئك الذين كانوا أسراه. لقد اتخذ السيد جسداً من أجل تحقيق هذه الغلبة ضد العاتي وقبل جسده الجراح، وسكب الدم فوق الصليب وهزّ أساسيات الأرض وهو ميت ووهب الحياة للأموات. كل هذه الأمور حدثت لكي نعرف الرب ونتحرر من التصاقنا بالأرض ونوجه أنظارنا نحو السماء. ومع ذلك فإننا لمّا نزل نغط من نومنا ولمّا نزل كتماثيل الحجرية لا توقظنا العواصف القاصفة. أهناك من هو أشقى منا إذا كنا كذلك؟ ألسنا أشقى من أي شقي، ألسنا بحاجة إلى الرثاء؟ ومن غيرنا يحتاج هذا الرثاء؟

أية مصائب تستحق فيض دموعنا؟ المرض. ليس الجسد مريضاً هنا. المريض هو أشرف ما في

الإنسان. أنها النفس. أنذرف الدموع لفاقتنا وفقرنا؟ إننا بإهمالنا أكثر فقراً من أولئك الذين يفتقـــرون إلى كل شيء. ما هو الغنى المادي بالنسبة للغنى الروحي الذي نفقده عندما لا تنجـذب قلوبنـا نحـو السماء؟ الفاقة تنتهي ساعة الموت، أما الفاقة الروحية والعرى فلا ينتهيان بل يستمران بعد الموت فـي الحياة الأخرى ليغذيا فيها حزننا وعرينا. ماذا إذاً؟ أنقـف موقف اللامبالاة ونترك الـشيطان الخبيـث يسيطر علينا، على إرادتنا وفكرنا؟ من يلق بنفسه فوق نصل السيف لينتحر أو في الهاويـة لينـسحق ويتهرب من أصدقائه ويقترب من الأعداء المجرمين يعطِ أدلة حسية على مسٍ في عقلـه. والإنـسان الذي يستسلم لعدو نفسه الشيطان ويتهرب من المسيح لا يبرهن إلاّ عن جنونه.
لو كانت لنا معرفة واعية بهذا الشر العظيم والخطر الذي نتعرض له لكنا ذرفنا الدمع بسهولة ولرافقنا الحزن طوال حياتنا. إن هذا الجرح بليغ على قلوبنا. ومع أننا كنا نـستطيع أن نكـون سـعداء فإننـا اخترنا الشقاء واخترنا أن نغرق في الظلمة مع أننا كنا نستطيع أن نحيا فـي النـور. إن مثـل هـذه الحالات المفجعة تحتاج إلى استنزاف دموع الجميع وعلى الأخص أولئـك الـذين يـشعرون بعظـم المصيبة. يكفي أن نفكر بأن السيد قد ذبح عرياناً على الصليب ليخلصنا من الحالة التـي نحـن فيهـا حتى نذرف الدموع. إن من تخضع له كلّ الأشياء وتخدمه يرانا متمردين ضد إرادة من صار إنـساناً وهو الإله ليجعلنا نحن البشر آلهة. إن مهندس السماء اتشح الأرض ليحولها إلى سماء والـسيد اتخـذ صورة عبدٍ ليهب المجد الحقيقي للعبيد. لأن ملك المجد "تحمل الصليب مستخفاً بالعار"(عبـرانيين 12: 2)

صورة الوداعة

من الضروري ان نلجم غضبنا كمسيحين وان نكون ودعاء مع الذين احزنونا ويحزنون. وقد تصرف المخلص هذا التصرف وصار تصرفه فلسفة حقيقية للعالم وكان القدوة الكبرى بما فعله وتحمله من اجلنا.اتخذ جسداً ودماً من اجل أولئك الذين احزنوه بخطاياهم. جاء ليخلص أولئك الذين يستطيع أن يقذف أقسى الاحكام والتهم في وجههم. وزّع احساناته على أناس جعلوا نفوسهم غير جديرة بأية موهبة بسبب خطاياهم. اتهموه بأنه يخرج الشياطين باسم رئيس الشياطين ومع ذلك ثابر بوداعة وتواضع على إحساناته مخرجاً الشياطين. لم يكن أحد تلامذته المدعو يهوذا جديراً بمحبته. أنفسد وأجدب نفسياً وتوصل إلى تدبير مؤامرة لتسليم السيد، فكر بالجريمة، فكر بأكبر جريمة يقترفها إنسان. لكن المسيح الوديع لم يبعده بالرغم من كل ذلك عن حلقة التلاميذ. كان يتصل به كما يتصل بالآخرين من أصدقائه الخلص. يا للوداعة! مع من كان يشترك المسيح؟ مع المجرم الخائن. كان يعطيه كل الأسرار، وقبّل من قبّله. مات من اجل أولئك الذين أحسن اليهم فجرد المُحسَن اليهم سيوفهم في وجهه. وكان رئيس المجرمين تلميذاً من تلامذته، وكانت القبلة اشارة للجريمة. كان السيد الذي تحمل كل هذا وديعاً رحوماً. عندما رأى أن أحد العبيد الذين اشتركوا في الجريمة قد قطعت اذنه بسيف بطرس شفاه فوراً. لم يخشَ أعداؤه قوته العجائبية فاستمروا في جريمتهم. لقد تحملهم السيد وهم الذين يستحقون أقسى العقوبات وأشدها فلم يرعووا هم ولا هو أبادهم بصواعق النار.
إن مصف الملائكة كانوا ينظرون الى الرب بخشية. لكن الكلي القدرة، الرب يسوع الذي كانت القوى السماوية ترتجف منه خوفاً، تبع بوداعة الذين قبضوا عليه في بستان الجسمانية واسلم يديه الطاهرتين للقيد، اليدين اللتين كانتا تطردان كل الأمراض وكل الشياطين. لقد لطمه احد العبيد على وجهه. كانت له القوة ليقضي على هذا العبد الشرير الكافر. لم يفعل ذلك، لقد عاملة معاملة وديعة ورحومة، وحاول بالكلام ان يشعره بخطيئته. إن الكتبة ورؤساء الكهنة حكموا عليه وقلوبهم مليئة بالحقد والكراهية، والرب القاضي المسكونة قبل الحكم صامتاً.يُرفع على الصليب فيظهر محبته حتى نحو قاتليه. يطلب من أبيه راجياً الاّ يعاقبهم. انه يتوسط لهم أكثر من ذلك. إن نبرة دفاعه تعبر عن محبته القصوى "أنهم لا يعرفون ماذا يصنعون" (لوقا 23 : 34). ان السيد كالآب الحنون الذي تألم من أجل أولاده. يريد بوداعته أن يردّ العقل إلى صالبيه. مات وفي صوته كل عمق الغفران. عندما قام من بين الأموات وغلب الموت أراد أن يجعل من تلاميذه الذين تركوه في أحرج الساعات شركاء في فرح قيامته. لقد ظهر لهم وأظهر كل تسامحه. لم يبكتهم ولم يذكرهم بهربهم ولا بالوعود التي

قطعوها بأنهم سيكونون مخلصين له حتى الموت. ماذا " يفعل الوديع والمتواضع القلب"؟ يعطي تلاميذه سلاماً وروحاً قدوساً، ويجعلهم حماة المسكونة وأسياداً روحيين على الأرض كلها.
كيف تصرّف مع بطرس الذي أنكره ثلاث مرات بعد أن قام من بين الأموات؟ لم يذكّره بنكرانه ولا بالظروف التي رافقت النكران. بالعكس أمر حاملات الطيب أن يعلنّ البشارة الكبيرة، بشارة القيامة، لبطرس بصورة خاصة. أنكره بطرس فبادره السيد بالشرف العظيم. رآه بعدئذ وحادثه بلهجة ودية سأله إذا كان يحبه أكثر مما يحبه التلاميذ الآخرون. سأله ثلاث مرات لا لأن السيد يجهل قلب التلميذ المحب بل ليدلل على انه يتذكر خطيئته الكبرى، نكرانه، وليشعل نار المحبة في قلبه وهي التي أشرفت قبل أيام على الصقيع.
على أساس هذه الأمور يظهر المخلّص غريباً عن كل اثر من آثار الغضب، ويعلّم ويسن شريعة الوداعة. يقول: عندما نصلي يجب أن نبتعد قبل كل شيء عن كل غضب. ويعلن في مكان آخر أننا لا نستطيع أن ننال غفراناً لخطايانا، هذه الهديه العامة التي جاء يحملها إلينا من السماء، إن نحن تركنا نفوسنا مستعبدة لأهواء الحقد والغضب. نستطيع ان نفعل كل شيء. أن نسكب انهاراً من الدموع والعرق، وان نعطي جسدنا للسيف والنار فأننا لن ننال الغفران إذا بقينا نحمل ثقل الغضب. ومن كلماته التي قالها عن نفسه: "تعلموا مني فأني وديع القلب ومتواضع فتجدوا راحة لنفوسكم" (متى 11: 29) نعرف القيمة التي أعطاها المخلّص للوداعة.
أنتكلم بعد عن الوداعة؟ لكي نصبح شركاء في المائدة السرية يجب أن نشعر بشوق حار. وعندما يوجد هذا الشوق الحار لا يجوز أن نتقدم من المائدة السرية إذا كانت نفسنا غير نقية من الغضب والحقد. فدم المخلّص الكريم الذي انسكب من أجل مصالحة البشر مع الله لا يحتمل أولئك العبيد لأهواء الغضب والكراهية. فيما مضى صرخ هابيل طالباً الانتقام من أخيه القاتل أما السيد المسيح فنادى أباه عندما سكب دمه فوق الصليب من اجل قاتليه. لم يكن في صوته ما كان في صوت هابيل من النقمة. لقد كان صوته مليئاً بالمحبة والغفران.

العطف نحو الآخرين

لا يعلّمنا مثال السيد الوداعة فقط بل العطف نحو الآخرين. نحن لا نستحق بسبب خطايانا رحمة وعطفاً، فقد رحمنا الله وما كنا ننتظر رحمة. حررنا المخلص من عبودية الشيطان واعتقنا من هوس العدو غير المنظور وخلصنا من عبودية الخطيئة ورباطاتها. كانت الأهواء تحزننا وكانت كالجبال بثقلها تضغط صدورنا، وكانت عبودية الشيطان تزداد ظلماً يوماً بعد يوم. وأمام هذه المأساة وقفنا في حيرة كاملة. وصلنا الى درجة العري النفسي الكامل. لم يكن لأحد أن يمدّ لنا يد المساعدة. صرنا موطىء قدم للعدو. ممن نستقي ماء التعزية عن خطايانا المرة؟ أمنّا نحن؟ أمن الغير؟ البشر كلهم يشعرون بعجزهم الكامل عن مساعدة الآخرين. وماذا أقول؟ أدواء؟ أعون وشفاء وقد وصلنا الى مثل هذه الحالة المؤسفة التي لا تمكننا من التفكير حتى بضرورة الطبيب؟ لقد خلصنا السيد بذاته من هذه الحالة الشقية. لم تخلصنا لا الملائكة ولا أي مرسل من المرسلين. خلصنا المخلّص الذي نشتمه ونهينه بحياتنا الخاطئة.
هنا يقوم التعجب العظيم الذي لا يستطيع أن يدركه الإنسان ولن. أن المسيح لم يرد أن يخلصنا من عذابات الشر فقط بل أخذ على عاتقه آلامنا وعذاباتنا ليجعلنا نحن الخطأة سعداء، لأنه في "أيام حياته البشرية" (عبرانيين 5: 7)، في حياته على الأرض، تحمّل كثيراً تحنناً ورحمة بنا لمّا ظهر لأعين الكثيرين جديراً بالرحمة. عندما سيق إلى موته غير العادل على الصليب " كان يتبعه جمع غفير ونساء كن يلطمن صدورهن وينحن باكيات" (لوقا 23: 27). لم تتألم النسوة فقط بل بكاه أيضاً النبي أشعيا قبلهن بزمنٍ طويل، عندما رأى آلامه بعين النبوة، وإزاء هذا المشهد الذي رآه فيه " لا صورة له ولا جمال ولا منظر" لم يتمكن من حبس دموعه.
يا للسر العظيم! أن المخلّص أثار عطف البشر عندما كان يمر في نزاع العذاب ليرحمنا. لم يرد أن يصير شريكاً لنا بالآلم فكرياً أو بتعبير إرادي بسيط بل تنازل ليعاني كل ألمٍ، تنازل ليموت البريء من الخطأ. لا يمكن أي حنان، مهما كان عظيماً، أن يقارن بالقليل من حنان المخلص ومحبته. يكفي

أن نفكر بعطف المخلص نحونا وبمقداره حتى تستيقظ فينا محبة إخواننا فنشاركهم الآلم الذي يعانون، العذاب الذي يذوقون. أي حزنٍ لم نذق؟ ألم نسقط من السماء موطننا الحقيقي؟ ألم نمر في فقر روحي؟ ألم نعدّب بجراحات الخطيئة؟ ألم نشعر بثقل نهر العبودية والأهواء المحمومة؟ ألم نصبح خارج نفوسنا كالابن الشاطر؟ لقد تحررنا من هذه الآلام كلها " لكثرة رحمة إلهنا"، فلنغفر نحن لغيرنا إذا أخطأوا نحونا متشبهين بسيد الكل. إن المخلص يدعونا هذه الدعوة، يدعونا لتوحيد موقفنا بالنسبة للآخرين مستوحين رحمته الإلهية: "كونوا رحماء كما أن أباكم السماوي رحيم" (لوقا 6: 36).

نقاوة القلب

أية رياضة، وأية محاولة، وأي جهادٍ، وكم من العرق والتفكير والدرس يحتاج المرء ليحوز على نقاوة القلب وقداسة النفس! لا يكفي أن ندرس حياة المسيح فقط لنحوز على هذه النقاوة بل يجب أن تكون الصلاة شغلنا الشاغل وهذيذنا المتواصل. يجب أن نغتصب هذه النقاوة اغتصاباً لنبقي أنقياء القلوب ونفكر بالأمور النافعة وبالروحيات، وان نبقى بعيدين عن كل ما هو مجرم فاسد خاطىء. ان حياتنا مزدوجة، جسدية وروحية. ينجذب الجسد بالأمور المنحطة الخاطئة ويثور ضد الروح في هذه الحالة يصبح الجسد عدواً للنفس. يحدث صراع للسيطرة، صراع بين الجسد المنجذب إلى تحت وبين النفس الراغبة بالحياة النقية السامية. فالرجال الذين يعيشون وفقاً لمتطلبات الحياة الجسدية يتركون قلوبهم للرغبات التي توسخ النفس وتفسد العقل. أما أولئك الذين ولدوا بالمسيح فيتغذون بأفكار وأحلام سامية تقودهم من الأرض إلى السماء.

ان السلام الذي يتكلم عنه الرسول بولس سنربحه بنقاوة القلب. ان المسيح " هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحداً وحلّ السياج المتوسط" (أفسس 2: 14). لقد صار كل شيء من اجل السلام، والحصول على هذا الخير العظيم يستحق كل درس واهتمام وسينال السلام البولسي أولئك الذين يضعونه فوق كل الخيرات فيطردون الحقد المدمر من نفوسهم، والخطيئة التي تبعد السلام عامة. يقطن السلام في القلوب النقية فقط. السلام هبه عظمى، والله نفسه الذي صار إنساناً لم يجد ما هو أسمى من السلام لذلك أراق دمه ليعطي للإنسان. لم يجد بين المخلوقات البشرية ما يشتري السلام به لذلك لتخذ جسداً ودماً وأراق دمه ليخلق خليقة جديدة نقيه سلامية، وصار بذبيحته رئيس السلام.

ماذا نطلب نحن الذين نسجد لدم المخلص؟ ماذا نطلب غير تحقيق النقاوة والتقديس اللذين يُدخلان السلام المسيحي للنفس؟ أتريد أن ترى ما الجمال؟ أتريد أن ترى ما أشعاع الفضيلة والقداسة؟ ادرس حياة المسيح. فالمسيح وحده بقي نقياً خالياً من كل خطيئة "خطيئة واحدة لم يفعل". "إن رئيس هذا العالم قد جاء ولم يجد فيه علة" ولم يستطيع حتى أعداؤه الذين ينظرون إليه نظرة اتهام أن يجدوا نقطة دنس في شمس العدالة الروحية. فقد كان ملء القداسة وخلواً من كل خطيئة. يجب أن ندرس حياة المخلص لكي يسيطر فينا الشوق اللاهب لقداسته. أذاك نستطيع أن نتشبه به بالفضيلة ونفهم جماله الروحي. المحبة تتبع الإدراك دائماً. ان حواء رأت الثمرة الممنوعة فأدركتها وانجذبت إليها. "رأت المرأة ان الثمرة صالحة للأكل وأنها حلوة في عينيها وجميلة للفم فأخذت من ثمرها وأكلت" (تكوين 3: 6).

صراع من اجل التشبه بالمثال الأول

أنود أن نوقد شعلة المحبة الإلهية للمسيح والفضيلة؟ من الطبيعي إذاً تحمُّل الاضطهادات ومجابهة كل الصعوبات بفرح لان الجوائز العظمى وأجملها تنتظرنا في السماء. أن المحبة لواضع الجهادات الروحية، المحبة للمسيح فيها هذا القدر من القوة ما يعطينا الإيمان الأكيد والرجاء بالجوائز غير الفانية السماوية التي لا نراها الآن. عندما نحب المسيح ونفكر وندرس حياته نتضع ونشعر بضعفنا البشري، وتنتابنا الآلام وننسحق من اجل خطايانا. سنكون ودعاء وعادلين ومحسنين وفعلة للمحبة والوحدة بين البشر. وفضلاً عن كل هذه الأمور سيكون الفرح وإتضاع النفسية العميقة حتى ولو اضطررنا إلى أن نجتاز الحياة بالاضطهاد والمهانة بسبب تفانينا من اجل المسيح وتكريس نفوسنا له.

بامكاننا ان نحوز على أكثر الخيرات الروحية، ومن الممكن ان نتمتع بالتفكير الروحي والدرس وان نحافظ على النية الحسنة. من الممكن أيضاً أن نعمل من اجل امتلاك الجمال الروحي والنفسي وان نحفظ الغنى الذي لا يثمن والذي نأخذه بالأسرار حتى لا نوسخ ونشق اللباس الملوكي الذي لبسناه. لنا العقل والمنطق وهما موهبتان من الله. نملك العقل والمنطق لدراسة حياة المسيح. فالسيد هو المثال الأول الذي يجب أن يرنو إليه الإنسان. ما نفعله نحن وما نشير على الإنسان أن يفعله نتعلمه من المسيح لأنه هو الأول والوسط والأخير الذي أرشد البشر ويرشدهم إلى الطريق الحقيقي والحياة الروحية السامية. المسيح هو المثال الأول والموحي، وهو في الوقت نفسه الجائزة والإكليل الذي سيناله المجاهدون. فأبصارنا يجب ان تتجه نحو المسيح ويجب أيضاً أن ندرس حياته على قدر ما يمكن لنعرف كيف نجاهد. ان المجاهدين لا يفكرون بالصراع والتعب بل بالجوائز. يقبلون بسرور أن يتحملوا كل الأتعاب وألام الجهاد وان يظهروا جلداً عظيماً عندما يفكرون بالجمال والبهاء الذي لإكليل الظفر. لكن من منّا لا يعرف ان من الواجب علينا ان نجاهد الجهاد الحسن الذي يدعونا إليه المسيح علاوة على الأكاليل غير الذاوية التي تنتظرنا. اشترانا المسيح بدمه الكريم ونحن كلنا ملك له. ليس غير المسيح يستحق محبتنا ويجب ان نخدمه وأن نكرس ذاتنا وجسدنا ونفسنا ومحبتنا وذاكرتنا وعقلنا وعملنا له لذلك يقول الرسول بولس: "أنتم لستم لأنفسكم لأنكم قد اشتريتم بثمن كريم فمجدوا الله بأجسادكم وأرواحكم التي هي لله". (1كورنثوس 6: 20).
أننا نملك الامكانية لنصير رجالاً مجددين بالمسيح. أعطينا العقل لنعرف المسيح والرغبة ليلتصق به قلبنا. لدينا المخيلة لنتصوره ونفكر به فهو بالنسبة لنا المبدأ الأول والمثال الأول. إن آدم العتيق ليس مثالاً يحتذى به، بل آدم الجديد فكان كاملاً ومثالاً للطاعة للآب "صار مطيعاً حتى الموت موت الصليب" (فيلبي 2: 8). إن آدم العتيق مثقل بالمعصية والتجاوز أما آدم الجديد فكان كاملاً في كل شيء: "انا أتممت وصايا أبي واسكن فيه بالمحبة" (يوحنا 15: 10). آدم العتيق أدخل الحياة غير الكاملة التي تحتاج إلى ألوف المساعدات، والمسيح هو نبع الحياة الخالدة للبشر لأنه قام من بين الأموات وهو سيد الخلود وواهب إياه للجنس البشري. وبعبارة موجزة انه المخلص الإلهي، الإنسان الكامل في طريقة حياته وهو وحده الأول في كل شيء.

بعيداً عن التخاذل

كل شيء يؤكد ان قلبنا يجب إن يكون ملتهباً بمحبة المسيح، وان نتصرف تصرفاً مسيحياً وان نقترب من الرب بفكرنا ونيتنا لأنه هو الإله الحقيقي، لا بل الإنسان الكامل ومثالنا الأزلي. علينا أن نتبحّر بفكرنا في حياة المخلّص وعمله. وإذا فكرنا أو أحببنا شيئاً في العالم أكثر من محبتنا للمسيح فأن ذلك يعتبر خطيئة ثقيلة وجرماً بحق ذواتنا. فالسيد يجب أن يكون غرض دراستنا الأول واهتمامنا واليه ينصرف عقلنا وقلبنا بفرح. وانه لمن السهل جداً أن نتصل بالمسيح بالصلاة. لا حاجة إلى معاملات خاصة ولا إلى الصراخ ليسمعنا. فالله موجود في كل مكان ولا يصعب أن يكون قريباً منا وهو الذي يلبي نداء من يستدعونه ويطلبونه بإيمان فيقطن في قلبهم. علينا أن نؤمن أن المخلّص سيستمعنا وألاّ نخاف أو نتردد ظانين أن المسيح لا يستجيب إلى صلاتنا كوننا خطأة. يجب أن نبقي قلة الإيمان والتخاذل بعيدين عن النفس وان نقترب دائماً من الرب بجرأة لأنه "منعم على غير الشاكرين والأشرار" (لوقا 6: 35). أصلي احدنا ويطلب العون؟ لن يشرف على خطر احتقار السيد له. يكفي أن يلتجئ إلى الصلاة بانسحاق وتوبة. أيمكن أن يحتقر السيد أحداً وهو الكثير الرحمة والمحبة والصلاح وقد جاء بدون ان يستدعيه الخطأة؟ "أذهبوا وتعلموا إني أريد رحمة لا ذبيحة، لم آتِ لأدعو صديقين بل خطأة إلى التوبة" (متى 9:13). اننا لا نطلبه بل هو الذي يفتش عنا. أي غنى سيسكبة، أي غنى من غنى محبته سيفيض عندما نطلبه ونرجوه بإيمان وحرارة؟ انه يحب حتى الذين يبغضونه فما قولك في المؤمنين الذين يحبونه؟ لقد أظهر الرسول بولس هذه الحقيقة: "إذ كنا أعداء وتصالحنا مع الله بموت ابنه فالأولى أن نخلص بحياته ونحن مصالحون" (رومية 5: 10)، ثم إننا نصلي كأناس يتضرعون لا كأناس يملكون هذا الحق. لا نظن بأننا أصدقاء الله بل نصلي على أساس شعورنا بأننا مذنبون خطأة وعبيد مجرمون لا نرجو من السيد أن يتوجنا بل نرجو أن يرحمنا. وإذا كان الله لا يقدم صفحه وغفرانه اللذين نطلبهما، ولا يهب للخطأة حلّ الدين الذي يطلبونه منه فلمن يهب؟ لا يحتاج

الأصحاء إلى طبيب بل المرضى (متى 9: 12). فإذا كان على الإنسان أن يستدعي الله ويطلب منه رحمة فهل يكون هذا الإنسان غير الإنسان الخاطىء الذي يشعر بجريرته وبضرورة الرحمة الإلهية؟ نستدعي الله بلساننا ونيتنا وفكرنا بطريقة تحمل كل الدواء لخطايانا، "ليس بأحد غيرة الخلاص لأنه ما من اسم آخر تحت السماء أُعطيَه الناس نستطيع به أن ندرك الخلاص" (أعمال 4: 12).

إن الخبز السماوي الذي يشدد ويقوي قلب الإنسان سيعطينا الشجاعة والصبر والقوة وسيطرد الكسل من أرواحنا. جاء السيد ليحمل لنا هذا الخبز السماوي، وعلينا إن نطلب هذا الخبز، هذه المائدة الروحية، بكل الوسائل حتى لا نتعرض لخطر الجوع الروحي. فلا نبتعدن عن المائدة الروحية بحجة عدم استحقاقنا. هناك كهنة. فلنتقدمنّ من الروحانيين ونعترفنّ بانسحاق لنتمكن من أن نأكل جسد الرب الطاهر ونشرب دمه الكريم. وعندما نهتم بالأمور السامية ونحفظ قلوبنا نقية فلن نكون من المدانين بالخطايا الكبيرة التي تمنعنا من المناولة الإلهية. فكما أن المناولة لغير المستحق تعتبر جرماً مميتاً كذلك الامتناع عن المناولة يعتبر جرماً أيضاً بالنسبة للمسيحي اليقظ الحياة. أولئك الذين يملكون الأهواء في نفوسهم وخصوصاً هوى العداوة والغِلّ نحو الآخرين لا يجوز أن يتناولوا سر الشكر قبل أن ينقوا قلوبهم ويتصالحوا مع الأشخاص الذين أحزنوهم. أولئك الذين يملكون نفوساً نقية صالحة ويجاهدون ليبقوا أحراراً من الأهواء ويشعرون بنقائص روحية صغيرة وأمراض فليتناولوا الدواء، وليلجأوا إلى المدبر الإلهي للصحة الروحية "الذي اخذ أمراضنا وحمل أسقامنا" (متى 8: 17)، ولا يبقوا بعيدين عن الطبيب.

إن دم الرب، للمؤمن الذي يتناوله بعد استعداد، يصبح باباً مقفلاً للنفس يمنع دخول ما يوسّخها ويلطخ الحياة الروحية، أو بالأحرى يقفل كل أبواب النفس بعد طرده للمدمر ليجعل من القلب هيكلا لله ينسكب فيه بالمناولة الإلهية. إن دم الذبائح لا يسمح بوجود الأصنام في هيكل سليمان. دم المخلص الكريم لا يسمح أن تبقى... "رجسة الخراب في الهيكل" (متى 24: 15) بل يسند الروح بالروح السيدي كما يضرع النبي داود، ويهب الطمأنينة العميقة للإنسان. لا أرى ضرورة أن أقول عن السر أكثر مما قلت. إذا اتصلنا بالمسيح بسرّ الشكر والصلاة والمطالعة الروحية والأفكار السامية العالية فعندئذ نروّض النفس على كل الفضائل ونحفظ الوديعة الصالحة التي يتكلم عنها الرسول بولس بالنعمة التي نلناها بواسطة الأسرار، بالإضافة إلى أن الرب هو المتمم لها والحافظ للنعمة في أرواحنا والمهيأ المؤمن لقبول النعمة، "بدوني لا تستطيعون أن تفعلوا شيئاً".

إرادتنا

إننا نرى ما للصحة الجسدية من قيمة وما تحمله للإنسان من فائدة في الرجل الذي يتمتع بتمام الصحة. ويلاحَظ الشيء ذاته في قيمة الصحة الروحية. ولكي نقدر هذه الصحة قدرها علينا أن ندرس جمال نفس المؤمن وصحته، المرتبطة حقيقة بالمسيح. لن نعطي أهمية للأمور البشرية التي تزين المسيحي ولن نهتم بالعجائب حتى ولو كان المسيحي يملك نعمة العجائب. علينا أن ننتبه إلى غنى الفضيلة الموجودة في نفسه. عندما توجد الفضيلة ويوجد برهان على قيمتها فلماذا السؤال عما إذا كان الفاضل يملك نعمة عجائبية؟ العجائب ليست برهاناً على الحياة في الفضيلة، لأنه لا القديسين العظام كلهم اجترحوا العجائب ولا كل الذين اجترحوا العجائب كانوا من القديسين، ومن فعلة الفضيلة كثيرون من القديسين الذين ارتفعوا ورفعهم الله وقاموا بأفعال الفضيلة لم يجترحوا حتى ولا عجيبة واحدة، والعكس فقد وجد رجال أشرار خبثاء اجترحوا عجائب كما فعل يهوذا العبد الغاش.

يحتاج عمل الفضيلة وتحقيقها إلى تعب وألم. أما النعمة العجائبية فيعطيها الله. لا يحتاج الإنسان إلى جهد لاجتراح العجائب. كثيرون هم الذين حصلوا على نعمة العجيبة دون أن يشتاقوا نيلها. من يملك مثل هذه الموهبة يجب أن لا يباهي فرحاً "لا تفرحوا لان الأرواح تخضع لكم بل افرحوا لان اسمكم كتب في السماء" (لوقا 10: 20). فما دامت العجائب لا تعطي الإنسان الفضيلة ولا تطهرها إذا كانت موجودة فمن الغرابة أن يطلب الإنسان رؤية العجائب ليقتنع بوجود الفضيلة. من يعرف كل الأسرار ويُلم بكل النظريات الروحية لا يستحق أن يكون مثار إعجاب فمن المؤكد أن هذه الأمور كلها تتبع الحياة الفاضلة وهذا لا يفرض وجود الحياة الروحية بالضرورة، والبرهان ما يقوله الرسول إلى أهل كورنثية : "إذا كانت لي النبوة لأرى كل الأسرار واعرف كل المعرفة، وإذا كان لي كل الإيمان حتى

أنقل الجبال وليست لي محبة فلست بشيء" (1 كورنثوس 13: 2).
لنتغاضَ عن الأمور الأخرى كلها ولننظر إلى إرادة النفس التي يتعلق بها صلاح الإنسان وخبثه وصحته الروحية ومرضه وحياته الروحية وموته. فإذا كان الله وحده يحكم إرادة الإنسان أن يجعل نفسه غرضاً من أغراض مغبطة. كيف يروض إرادته حتى لا يريد إلا الصلاح. إن الله يعمل من أجل هذه الغاية وكل اهتمامه ينحصر في هذه الناحية. وقد أعطى الله المكافأة من أجل ترويض الإرادة على الفضيلة فوعد بالجوائز الأبديَة والخيرات الصالحة كما فرض العقوبات والتهديدات التي لا حدّ لها في الوقت نفسه. إن الله خلق العالم ووضع نواميس إلهية لا تزول، وأعطى الإنسان خيرات غنية، كما انه أوجد عقوبات صارمة وكثيراً ما يعاقبه ويجربه بشتى الطرق ليجذب إليه نفسه ويقنعه بأن يحب الله بإرادته. من يستطيع أن يدرك غنى خيرات الله واحساناته التي لا تثمن للإنسان؟ أية مكافأة يطلب الله لقاء هذه الخيرات المنظورة وغير المنظورة؟ أن تكون لنا رغبة صالحة وأن نريد وأن نفعل الخير. كل الوصايا والإرشادات وكلام الله يستهدف خيرنا. عندما يدين الله الطمع والرغبات الوضيعة والغضب والحقد لا يطلب إلا توبة ومحبة للخير ودواء وإرادة قوية. كل الفضائل التي من أجلها يغبط المسيح الإنسان هي من عمل النعمة والإرادة.
أليس الإيمان بالله والعقائد الصحيحة عامة من مميزات البشر الذين يملكون نية حسنة وإرادة صالحة؟ إن الله أعطى الناموس من أجل المحبة ولكن الفضيلة لا تتطور بدون إرادة. فعندما يطلب الله منا، بعد الاهتمام بتهذيب نفوسنا وإرادتنا ثماراً روحية، فمن الواضح انه يعطي لإرادتنا كل قوة لفعل الخير. فالمعمودية وكذلك الأسرار الأخرى تجهزنا للحياة المستقبلة ويعتبرها الرسول بولس "قوى الدهر الآتي" (عبرانيين 6: 5). أنها تجهزنا للحياة بما تعطيه لنا من القوة فنحقق الحقيقة المسيحية ونحياها. إن الحقيقة المسيحية كعمل وحياة هي إكليل لنا. أنها تؤهل المؤمن ليسكن المسيح في قلبه، "إذا أحبني احد حفظ كلامي وأبي يحبه واليه نأتي وعنده نجعل مقامنا" (يوحنا 14: 23).
من سيحافظ على كلام الله؟ من كانت له النية الصالحة ومن أراد أن تكون له هذه النية، فالله حدّد جوائز أبدية للإنسان لأنه ينشد الفضيلة بإرادته، وحدّد عقاباً أبدياً للخطأة الكفرة لأنهم بإرادتهم يصبحون كذلك. الإنسان مسؤول أمام الله لأنه حرٌّ في أن يختار بين الخير والشر. فلو كان عبداً وكانت أفعاله إجبارية لما استحق لا الجوائز ولا العقوبات الحياة الروحية المغبوطة تتعلق بإرادتنا. الإنسان يكون بإرادته صالحاً أو شريراً. الشرير يهتم بالأمور الوضيعة البطالة الخاطئة، والصالح يفرح بالأمور الصالحة السامية الروحية. ليس الخبث والصلاح بل الشقاء والسعادة أيضاً يتعلقان بالطريقة التي تتهذب بها الإرادة وتتروض.

تشخيص وشفاء

من يحيا الحياة السامية ويتبع في حياته الفلسفة الحقيقية، أي الفلسفة المسيحية، فانه يعرف جيداً ما هو الشر الذي يجب أن يبغض ويتجنب بكل ما فيه من قوة. ما هو الشر إذاً؟ الشرور كثيرة في نظر الإنسان مع أن الشر في الواقع واحد. انه خبث النفس النابع من نية الإنسان المريضة الشريرة. يسمي الإنسان الطقس المتقلب شراً وكذلك الجفاف وقحط الأرض والزلازل والوباء وحرمان الخيرات الأرضية والمرض والجراح والسجن وأشياء كثيرة مماثلة، كل هذه الأمور تصيب الجسد الإنساني وثروته. ليس الإنسان جسداً ولا ثروة حتى نقول أن الإنسان إذا فقد الثروة وتهدم الجسد فقد أشرف على خطر الهلاك. كذلك لا يصير الإنسان شريراً وشقياً بناءً على الرأي الذي يكوّنه عنه الآخرون. يدين البشر بسهولة ويحكمون ويتهمون. يتهمون بالشر من ليس بالشرير ويقولون عن هذا أو ذاك بأنه غير صالح وغير بار. الأحكام البشرية صالحة كانت أم طالحة لا تضيف على الفضيلة فضيلة ولا على الشر شراً. إن سعادتنا وشقاءنا لا يتعلقان برأي الآخرين. فهما كالصحة والمرض، كالفاقة والغنى. ما هو المقياس الصالح للتمييز بين الخير والشر؟ ليست الأحكام البشرية الصادرة عن أناس يعيشون بعيدين عن الله هي المقياس بل حكم الله المعبر عن الصلاح الحقيقي والخير. كل ما هو خارج عن حكم الله، ويدينه حكم الله هو الشر والفساد، ما يطلب أن نعرفه ونريده هو النافع والمحقق لسعادتنا وكل ما هو مخالف لكلام الله مليء بالخداع.

إن الحقيقة التي تقود إلى الحياة الروحية سطرها رجال ملهمون من الله كالأنبياء والرسل. أما الحقيقة الكاملة الكلية فقد بشر بها نبع الحق. ذاك اتخذ صوت الإنسان من أجل هذه الغاية. أين يجد الإنسان الحقيقة النقية الخالصة الكلية؟ أيجدها في غير كلام الله؟ أليس الله الحقيقة الوحيدة والصلاح الوحيد؟ إننا سنجد الصلاح بتعليم المسيح لا بآراء المبشرين الذين يجهلون الحقيقة، وبجهلهم لها يسببون الشقاء للإنسان. عندما نرى الشر في ذواتنا والآخرين يجب أن نعاني الآلام وان نصلي من أجل نفوسنا ومن أجل الآخرين لاستئصال الشر حتى يسيطر الخير. عندما نملك مثل هذا الشوق السامي نستعين بالرحمة الإلهية ونرغب أن نرى مجد الله مشعاً وساطعاً في كل مكان.

إن الخطيئة هي الشيء الذي يزعج الذين يعيشون في المسيح أولاً، لان الخطيئة خبث والمسيحيون يريدون الصلاح، ثانياً لان الخطيئة محاربة للناموس الإلهي فمن يحزن من أجل الخطيئة ينال فائدة روحية كبرى. أمريض أنت جسدياً فتحزن وتبكي لمرضك؟ المرض لا يتراجع ولا يهرب بالحزن والدموع بل يزداد. أما الخطيئة، هذا المرض لا يتراجع ولا يهرب بالحزن والدموع بل يزداد. أما الخطيئة، هذا المرض النفسي، فالحزن دواؤها يرافقه الشعور بالتوبة ويحفظ الإنسان في مثل هذه الحالة من خطيئة جديدة، ويساعده على أن يترك حياة الخطيئة ويعتقه من كل مسؤولية الجرم الذي يثقله بالخطايا. أن الألم لا يخدم هدفاً غير هذا الهدف في الحياة الإنسانية.

أننا نجسر على اقتراف الخطيئة من أجل اللذة والمتعة اللتين تعد بهما. نبذّل صحة النفس بالخطيئة، بهذا المرض العضال القتّال، من أجل لذة خيالية. لو عرفنا إلى أي هلاك وضياع تقودنا الخطيئة لما أقدمنا على عمل كهذا، ولكن عندما نعرف هذه المعرفة المخلصة ونتوب ونحزن فمن الواضح أننا سنمقت الخطيئة وسنطرحها جانباً ونعتاض عنها بالصحة التي فقدناها بواسطة الخطيئة.

هيكل الله

إن المسيحيين الذين يريدون أن يحيوا في الواقع حياة مسيحية يعبرون فوراً كل تجربة للخطيئة ويجتثون من نفوسهم كل جذور الشر ويحفظون قلوبهم نقية كهيكل ومسكن للرب لأنهم يعرفون أن كل بيت مقدس يجب أن يبقى نظيفاً خالياً من كل دنس، مهما كان طفيفاً، وكذلك لا يجوز أن يمس أواني الهيكل غير الكهنة ولا أن تستعمل في أمور معاشية أو أمورٍ غير مشروعة. ونفس المسيحي المكرسة لله هي أسمى من الأواني المقدسة وغير مسلوكة قط. لا يدخل إليها الذين يبيعون ويشترون والصيارفة والعشارون، أي كل شيء بطال خاطىء. لأنه إذا كنا ملزمين بالمحافظة على نقاوة الهيكل ونظافته كهيكل للرب فبالأحرى أن نحافظ على نقاوة نفوسنا كمؤمنين نصلي في هذا المكان المعد للصلاة، حيث يحافظ على نظافته في جوٍ بعيد عن الضجيج. ومع أن الكنيسة يقال لها بيت صلاة مع انه لا يُصلي فيها دائماً، فهناك ساعات لا بل أيام لا تقام فيها الصلاة، أما المسيحي وفقاً لوصية بولس المهمة الفعلية أن يكون على اتصال دائم بالله، أن يكون في حالة من الصلاة الدائمة.

ما أثقل الخطيئة، خطيئة تدنيس النفس، هذا الهيكل الإلهي الحي! ندرك ثقلها من الطريقة التي جابه بها المخلص الذين دنسوا الهيكل. لم يستعمل الرب التعليم والنصح بل استعمل الغضب الإلهي والسوط. أراد أن يعلم، بهذه المعاملة القاسية، لا عن قداسة الهيكل فقط الذي يدنسه تجار محتقرون ومستلون ويدوسونه، بل عمّا هو فوق ذلك، أراد أن يعلم عن قداسة هيكلنا الحي، عن نفسنا، والى أي حد يجب أن يبقى المؤمن نقياً في هدوئه الروحي بعيداً عن ضجيج العالم والخطيئة. أن الهوى مخيف، أن تصبح الخطيئة هدارة في أعماق النفس. نحتاج إلى ألمٍ مقدس وقوة روحية وانتباه يقظ، وكذلك إلى يدِ الله القدير لنبعد الاضطراب والضجيج النفسي الذي تسببه الخطيئة في داخلنا، في هذا الهيكل الإلهي. كان مدنس الهيكل في العهد العتيق يعاقب بالموت وكان قدس الأقداس مفصولاً عن الهيكل كمكان غير منظور، لا يجوز الدخول إليه. أصيب عوزنا بالبرص لأنه دنّس المقدسات، كانت هذه كلها رموزاً ترمز إلى ضرورة بقاء هذا الملجأ، هذا الهيكل الحقيقي لله، نفس المسيحي، نقياً.

الاهتمامات الدنيوية

من أراد متحداً بالمسيح عليه أن يهتم اهتماماً صادقاً بنفسه، أن ينجذب بالمسيح وليس بالأشياء العالمية. عندما سمع الرسول بطرس دعوة المخلّص لم يهتم بالأمور الدنيوية. وكل مسيحي وان لم تكن له دعوة بطرس الخاصة، مدعوٌ بالنعمة المستمرة التي تعطي للنفس بواسطة الأسرار ليحيا بالمسيح. يتكلم الرسول بولس عن هذه الدعوة قائلاً: "أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً يا أبا الآب" (غلاطية 4: 6). يجب أن نعتبر كل الأشياء الأخرى في المرتبة الدنيا لنتمكن من أن نتبع المسيح. "ليس من المستحب أن نهمل كلام الله لنخدم الموائد" (أعمال 6: 2) لأنه ما قيمة الخيرات المادية الضرورية بالنسبة لخدمة الله؟ ثم أن من يخدم الله بصدق سيجد الخيرات المادية الضرورية، لان الله هو النبع والقائد لكل خير. "اطلبوا ملكوت الله وبره وكل شيء يزاد لكم" (متى 6: 33). إن الله الذي لا يكذب قد أعطانا هذا الوعد.

يتكلم المخلّص كثيراً بقصد حمايتنا من الاهتمامات الدنيوية ويقول بأنه لن يتركنا بل سيهتم بنا وبحياتنا. انه يشدد على هذه الحقيقة لأننا مشرفون على خسارة الأمور السامية لسبب اهتمامنا الدنيوي.

إذا كان الاهتمام الدنيوي خطراً فما قولك بالاهتمام المرفوق بالعذاب؟ إن هذه الحالة من النزاع الحياتي تقود الإنسان إلى منحدر الضلال. من ترك نفسه ليكون ألعوبة بيد القدر والأهواء الحياتية يعاني دواراً وانهياراً نفسياً وتضعضعاً ولا يتردد عن فعل كل ما هو قبيح وخاطىء ويتوقف كل نشاط وإمكانية وعمل، ويصبح عبداً تحت أقدام الأهواء، وعندما توجد النفس في مثل هذه الحالة المحزنة تملؤها جراح الخطيئة فتنقاد إلى الموت الروحي، إلى الابتعاد الكلي عن الله. إلى أين يستطيع الحزن أن يقود الذي يغذيه الاهتمام بالأمور الدنيوية. "إن حزن هذا العالم يعمل من أجل الموت" (2 كورنثوس 7: 10) فمن أراد أن يحيا الحياة الروحية عليه ألاّ يطرد الحزن فقط بل كل اهتمام وقلق، هذا العدو اللدود للحياة المسيحية. فعلى من يريد أن يحيا الحياة في المسيح أن يحصن نفسه ضد كل الاهتمامات الكافرة.

الحزن من أجل الله

إن الخطيئة تسبب الحزن لجميع النفوس. والحزن الذي يلي الخطيئة لا ينبع من منابع واحدة ولا يتأتى من دوافع واحدة. يحزن المرء لتكبره. انه يتخيل نفسه فوق ما هي وعندما يرى السقطة يفكر أن الصنم، الفكرة التي كوّنها عن نفسه قد انسحقت، وبكلمة مختصرة يشعر أن كبرياءه قد انجرحت. ويحزن الآخر لأنه أخطأ ومن جراء خطئه سيخسر الجوائز السماوية، ويحزن الثالث لأنه يفكر بالحساب الذي سيقدمه في المجيء الثاني وبالدينونة الرهيبة التي تنتظر الخطأة. أما الذي تقدم روحياً وعاش عيشة مسيحية حقيقية فإنه يحزن، إذا اخطأ، لأنه بخطئه أهان المشرّع الإلهي الكلي الصلاح. حيث أن المسيحي في نموه الروحي لا يتحرك بدافع الخوف من العقاب ولا بدافع الحصول على الجوائز، بل بدافع المحبة المسيحية كذلك عندما يحزن للأعمال الخاطئة التي يقوم بها فإنه يحزن محبة بالله. كل المسيحيين الذين تحركهم دوافع الحزن السامية يفضلون على غيرهم الذين يبكون وينوحون بدافع الكبرياء وحب الذات، لأنهم ينوحون ويحزنون من أجل المحبة الإلهية.

الحزن والدموع من أجل الخطيئة يجب أن يستهدفا غرضاً واحداً، اقتلاع الخطيئة والاستعاضة عنها بالصحة الروحية. ولا يتحقق هذا إلاّ بالحزن من أجل الله لان هذا الحزن هو تعبير صريح عن محبته. الذين يحزنون من اجله يطلبونه بكل قلوبهم وهم الذين كتب عنهم النبي داود "يطلبون الله بكل قلوبهم" (مزمور 18: 12)، وهم السائرون في ناموس الرب (مزمور 118: 1)، العائشون بمحبة حقيقية من اجل الله ويستهدفون مـــن حزنهم شيئاً واحداً، الوصول إلى توبة صادقة ليتحرروا من كل خطيئة تسود النفس. هؤلاء لا يصلون إلى أي تطرف لأنهم يعرفون إلى أي مدى يجوز الحزن من اجل الخطيئة.

من المعروف إن الفضيلة البشرية تهدف إلى ربط الإنسان بالله أما الخطيئة فتبعده عنه. لا يحب الفضيلة محبة حقه الذين يرغبون بالفضيلة بدوافع غير دوافع محبة الله. وكذلك الذين يحزنون على خطاياهم بدافع غير دافع إهانتهم لله. هؤلاء لا يحبون الله ولا يكرهون الخطيئة فعلاً وعندما يتجنبونها بالعقل والعمل لا يتجنبونها بنية صادقة.
عندما تتجنب الخطيئة لا لأنك أهنت ناموس الرب بل لأنك تخسر من اقترافك لها فانك تتجنب الخسارة أكثر مما تتجنب الخطيئة. والبرهان انه إذا كان بامكانك أن تخطئ دون أن تتعرض لخطر فانك لن تتردد عن فعل الخطيئة. الذي يتهرب من الخطيئة حباً بالله فإنه يحترم المشرع الإلهي والناموس وعندما يصطدم بأوامر الله يحكم على نفسه ويدين الخطيئة ويسكب الدموع، لا لأنه يخشى العقاب ويخسر الأجرة بل لأنه اصطدم بإرادة الله. الذين يحزنون بسبب الخطيئة وليس من اجل الله فلن يحصلوا على نقاوة القلب حتى ولو تابوا عن خطيئتهم. أما الذين يعانون الحزن من اجل الله فيطردون كل مرض يقال له خطيئة.

كمال الفرح

هذا ما يتعلق بالحزن. ماذا بالفرح. أننا نفرح عندما نملك الخيرات الأرضية التي نحبها. ونفرح حتى عندما نأمل أن نحصل عليها. "نفرح على الرجاء" كما يقول الرسول. يفرح المسيحي الحقيقي عندما يعرف بأنه يقوم بما هو صالح. يفرح بنفسه وبالآخرين عندما يرى هؤلاء يستهدفون الصالح ويعملون من أجله. الرجل الصالح يشعر دائماً بالفرح ويشتهي سعادة الآخرين. هذا هو الفرح السامي النقي. عندما يشعر المسيحي بفرح الآخرين ويعتبره فرحاً خاصاً به، عندما لا يطلب منفعته الخاصة ونجاحه فقط بل نجاح الغير ومنفعتهم مبتهجاً بالإكليل الذي يناله هو يكون قد تجاوز الطبيعة البشرية وشابه الله. أنفرح عندما نرى الفضيلة في الآخرين؟ أننا نسمو كرجال، ومحبة الفضيلة أصبحت عندما محبة لهل دوافع نقية مجردة.
من الواضح أن من يرغب ويفرح بنمو الآخرين الروحي لن يكون غريباً لا عن الحياة الروحية ولا عن الفضيلة عموماً. أكان يفرح ويهتم من أجل نمو الحياة الروحية عند الآخرين لو كانت نفسه فارغة من كل فضيلة، لو كان يفتقر إلى الحياة الروحية؟ هناك أناس غرباء عن الحياة الروحية يلبسون وشاحاً ظاهرياً ويتقنعون بقناع المسيحية ويحبون أن يتقدموا الآخرين في الأمور الروحية وفي عمل الفضيلة. من الواضح أن هؤلاء يفعلون ذلك بدافع الاسم والشهرة والمجد الكاذب، لا حباً بالفضيلة والصلاح. مثل هؤلاء تدفعهم حياتهم الكاذبة لحقيقة يتوهمونها حقيقة. يستحيل على مثل هؤلاء أن يكونوا رجالاً روحيين أفاضل. المسيحيون المعتقون من روح الحسد هم الذين يشعرون بالمحبة الصادقة الكاملة نحو الآخرين ويملكون الفلسفة الحقيقية الكاملة السامية. طبيعي أيضاً أن يشعروا بمثل هذا الفرح النقي. يظهر الرجل الصالح من محبته للآخرين باعطائهم ما يملكه. انه ينفق كل قواه لا في سبيل نفسه بل في سبيل الآخرين. ينزعج للحالة المزعجة التي يمرُّ بها الآخرين. ويفرح للفرح الذي يغمرهم فكأنه هو مكانهم. محبة الله تولد في نفسه الفرح النقي البريء. انه لا يفرح بالشخص الذي يحبه بل يفرح بكل ما يفرح له الشخص المحبوب.
هناك فرح لا يعادله فرح ونقاوة وكمال. بما أن المسيحي يحب الله فوق كل شيء وأكثر من أي شيء فأنه يعيش في الله ويفرح الفرح الذي من ثمار المحبة. ما هو هذا الفرح؟ المسيحي لا يجعل نفسه غرض هذا الفرح. انه يفرح من اجل الله وفي الله. فالله هو المحسن العظيم لنا، فإذا كنا نحب المحسن إلينا فكيف نظهر شاكرين؟ كيف نكون عادلين إذا كنا لا نحب من وهبنا محبته التي لا تحد؟ كيف نكون حكماء إذا كنا لا نجعل الله محور في حياتنا؟ وبما أن المسيحي هو شكور بالطبع وعادل فمن الضروري أن يحب الله ويفرح في الله بطريقة مثلى وان يكون فرحة مستمراً، أكيداً، فائقاً الطبيعة، عجيباً. ويكون الفرح مستمراً لأنه يتحد بالله الذي يشعر نحوه شعور الشوق اللاهب. عندما يلتقي بالغير، عندما يعمل، ويفكر ويفعل ويستعمل شيئاً ما يرى كل شيء كأنه من فعل الله. كل شيء يحتفظ بالشعلة المتقدة بالمحبة لله. كل شيء يولد في القلب نشوة وفرحاً روحياً، لا شيء يستطيع أن

يقلله أو يوقف مجراه.
الله يعطينا فرح النفس وحياتها. فالنفس خالدة والفرح الذي يهبه الله لا حدود له. يفرح من اجل الصلاح الإلهي الذي لا حدّ له ويطلب من الله الصالح أن يحقق رغبتنا في الفرح غير المحدود. أنى لنا أن نصف الفرح من أجل الله؟ اننا لا نفرح من اجل الأمور التي حصلنا عليها. لو كان فرحنا من أجل هذه الأمور فقط لكان فرحنا محدوداً، وخصوصاً وأمور كثيرة لما تزل تنقصنا وما تمكنا أن نحصل عليها. كل ما يريده الله يولد فينا الفرح المسيحي ولا يريد المسيحي أن يكون ملك نفسه بل ملكاً لله الذي يشتاقه. يفرح المسيحي من اجل الخيرات التي لا حدّ لها في الله، لا من اجل الخيرات التي يتمتع بها. ينسى فقره الخاص ويسر بغنى الله اللامحدود. يعتبر الفقر شيئاً غريباً والغنى الروحي هو عناه الخاص. لا يعتبر نفسه شقياً بسبب الحرمان المادي بل مغبطاً وسعيداً بالغنى الروحي.

المحبة ــ الفرح

أنحب الله محبة لاهبة؟ يجب أن نضحي بالجسد والروح من أجله. لنكن دائماً على استعداد للتضحية بالجسد في كل لحظة حتى تصبح روحنا بكليتها ملكاً له. فإذا نقينا كل حركة وكل رغبة في النفس وأرجعناها لله فسنحقق رغبتنا. إذا طلبنا أن تكون النفس سعيدة فإننا نطلب ذلك على أساس محبتنا لله وذلك بإتمام إرادته وحفظ وصاياه الأزلية. التفكير الآتي يوضح ذلك بصورة جلية. لماذا نهتم من أجل نفوسنا ولماذا نحبها هكذا؟ لأننا لا نريد أن تحيا فقط بل أن تحيا سعيدة. من يريد أن يحيا شقياً؟ لا أحد. ماذا قال المخلص ليهوذا ذي النفس المخيفة؟ "كان من الأفضل ألا يولد هذا الإنسان" (متى 26: 24). بما ان حياة النفس السعيدة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمحبة الله فمن الواضح انه عندما نحب الله نحب أنفسنا ونبتغي سعادتنا. يجهل الكثيرون، لسوء الحظ، بأن سعادة النفس الحقيقية تقوم على محبة الله. فهم لذلك يوجهون محبتهم للأمور الأخرى وكثيراً ما يفضلون هذه الأمور التي تحزن نفوسهم فينتهون إلى الشقاء لأنهم لا يحترمون نفوسهم. أما المسيحيون أصحاب القيم الحقيقية فيكرسون ذواتهم لله لأنهم يعرفون أنهم سيحظون بالقرب منه بالسعادة الحقيقية. أنهم يحبون الله بكل قوتهم. ومحبة الله تنظم كل محبة أخرى، محبة نفوسهم، محبة كل الأشياء التي تعتبر جديرة بالمحبة.
ان المخلص بالنسبة لنا نحن المسيحيين هو أكثر من نفوسنا ألفة لذواتنا، والذين يهتمون حتى تكون كل حياتهم محبة للمسيح يعرفون الرباط الذي يربطهم به. يسرع المسيحي إلى المخلص ولا سلام فيه وعندما يجده ويحيا فيه يشعر بالسعادة الحقيقية الوحيدة. انه يحب المسيح بكل قواه لان الوصية الكبرى تفرض ذلك "أحبب الرب إلهك من كل قلبك وفكرك ومن كل قدرتك" (مرقص 12: 30)، وبما أن المسيحي يعطي كل محبته لله فأنه لا يترك شيئاً، لا لنفسه ولا لأي شيء آخر. في كل مكان يصبح الحب رباطاً قوياً والذين يحبون الله يعيشون من أجل المسيح ويفرحون بالله فقط.
الذين يحبون الله يفرحون بخيراته لاشتراكهم بها ويحوزون على الغنى الروحي ويباهون ويفاخرون بمجد الله. عندما يُسجد لله ويُعبد يتكلل هؤلاء ويتشرفون. أما أولئك الذين لا يعيشون لله بل لنفوسهم فأنهم لا يملكون فرحاً خلواً من ظلال الألم حتى ولو فرحوا بالخيرات الحقيقية. وهم إذا فرحوا فإنما يفرحون من أجل الخيرات الحاضرة ولكنهم يتألمون لان الخيرات المستقبلة تنقصهم ولا يستطيعون أن يملكوها لارتباطهم بالخيرات الحاضرة التي تعذبهم وان كانوا يملكونها. والذين يشعرون بالفرح الكامل هم الذين يعيشون بالرب. أنهم لا يعانون الألم لان كل شيء يبعث فيهم الفرح ولا شيء يسبب انزعاجهم. لا شيء محزن في الله الذي نعيش من أجله. إن الأمور التي يعتبرها المسيحي خاصة به لا تثير حزنه. لماذا؟ لسبب بسيط. لا يعيش المسيحي الذي يملك محبة كاملة لله لما له. "المحبة لا تطلب ما لها" (1 كورنثوس 13: 5) والمسيحي يحب الله لأنه مغبط. المحبة فائقة الطبيعة، المحبة تجترح العجائب والإنسان هذا الغبار والرماد يترك ما له أو بالأحرى يعتاض عنه بما لله ويصبح شبيهاً به. يحدث له ما يحدث للفقراء والحزانى الذين يدخلون البيت الملوكي فيطرحون فجأة فقرهم ويرتدون البهاء.
أهناك فرح أسمى وأمتن من الفرح الذي يعانيه المرء في الله؟ عندما يستهدف الإنسان الفرح بعيداً عن الله فمن السهل خسرانه. ليس في الكون خير ثابت. الغني يفرح قليلاً بغناه ويرتعد جزعاً من فقده. أما

كنز الصالحات فلا يتغير. الفرح الآتي من هذا الكنز معتق من الخوف وحزن. خيرات الله ثابتة وأكيدة وخالدة. أولئك الذين يملكون فرح العالم يكونون في خوف وشك دائمين من أن يفقدوه. أما المسيحي الذي يتمتع بفرح الله فلا يعكر صفوه معكر لأنه يصبح قوياً في الله، به يعتز ويتمتع بالفرح الإلهي الفائق الطبيعة. يفرح الإنسان فرحاً عظيماً عندما يستبدل بيتاً عتيقاً بيت جديد أنيق. ترى أي فرح يشعر به من تمكن أن يحيا في الله، من تمكن أن يشعر بالله أكثر من شعوره بالبيت والجسد والأصدقاء والأقارب. انه يفرح بالمسيح وبما يفرح له المسيح. لقد وضع السيد ناموس المحبة وكلماته شاهد. أوصى تلاميذه ما أوصاهم به. "هذا ما أوصيكم به" أن تحبوني وتجعلوني صديقاً لكم " حتى يكون فرحي فيكم ويتم فرحكم" (يوحنا 15: 11) لان هذه الصداقة الإلهية ستجعل ما لي لكم وعند ذلك ستشعرون بالفرح الذي أفرحه. "إن متم فحياتكم مختبئة بالمسيح الرب" (كولوسي 3: 3).
لم تتقدس حياتنا فقط بل تقدس كل شيء فينا وتثبت في المسيح. لم يبق شيء بشرياً " ألا تعرفون أن جسدكم هيكل للروح القدس الذي فيكم أعطيتموه من الله وليس لكم لأنكم قد اشتريتم بثمن كريم" (1 كورنثوس 6: 9). من اشترى لا يملك ذاته، تتعلق ذاته بالشاري. ويعيش وفقاً لإرادة الشاري ورأيه. كان العبيد قديماً عبيداً بالجسد أحراراً في الرأي والتفكير. أما المسيحي الذي اشتراه المسيح فهو بجسده وروحه ملك للمسيح. كان البشر يشترون أجساد البشر أما المسيح فقد اشترى كل إنسان. كان البشر يدفعون ثمن الإنسان مالاً. أما المسيح فقد ضحى بحياته من اجل تحريرنا من عبودية الخطيئة. تألم وقاسى العذابات وقبل التضحية، "إن نفسي حزينة حتى الموت" (مرقص 14: 34). لقد أعطي كل ذاته ليشتري كل الإنسان وهكذا اشترى إرادتنا وقبل إرادتنا قبل كل شيء لأنها هي التي استعبدت للخطيئة. فعل المخلص كل شيء ليجذبنا ويجعلنا من خاصته. لم يستعمل طريقة العنف فقد أراد فكرنا وعقلنا. لم يغتصب بل اشترى وما دمنا قد اشترينا بدم المخلص فلا يمكن أن نستعمل إرادتنا من أجل الخطيئة وان نتركها أرجوحة بيدِ الأهواء. إن إرادتنا ملك للشاري.

عبودية وعبودية

أمسيحيون حقيقيون نحن؟ ألنا الشعور العميق بأننا قد اشترينا من قبل الرب؟ إذا كان الجواب نعم فإننا لن نحب ذواتنا حباً أنانياً. ستكون محبتنا وإرادتنا كلها مع المخلص لأنه إذا كانت إرادتنا لا تنجذب بالمسيح فما الفائدة من الذبيحة الصليبية التي تمت من أجل مشترانا؟ عندما نحب المسيح فقط فمن المسام به أن تنعتق نفوسنا من كل حزن وذلك لأننا لن نفعل شيئاً يخالف إرادة الله. فالفرح الذي نتذوقه سيكون فرحاً عظيماً فائق الطبيعة، إلهياً لا يعبّر عنه ولا يوصف. من كان عبداً للخطيئة وعبداً للبشر يحزن أما عبد المسيح فلا، بل يفرح الفرح الكامل. إن عبد البشر يسير وراء شاريه بألم وعذاب وحزن لان الإنسان الشاري مجرم خاطىء مطالب مدان. أما عبد المسيح فيتخلص من الحزن. وكيف لا؟ وهو الذي وراء نبع الفرح والغبطة.
كان الرجال الذين يشترون العبيد يدفعون ثمنهم مالاً لا ليحسنوا إليهم بل ليربحوا من عملهم وتعبهم ومشقاتهم. كان العبيد يعرفون ذلك. كانوا يعرفون أنهم آلة اشتغال غايتها العمل فقط ليعيش من اشتراهم مترفاً. كان من الطبيعي أن يكون العبد في حالة من الغم والحزن في الوقت الذي كان فيه سيدهم يتهلل ويتنعم. أما بالنسبة لنا نحن المسيحيين كعبيد للمسيح فالقضية تنعكس. إن السيد فعل كل شيء من اجلنا ومن اجل سعادتنا ونموت. أعطى دمه الكريم بدلاً، لا ليتمتع هو بأتعابنا بل ليجعلنا شركاء ومساهمين في خيراته. أننا لا نقدم شيئاً للمخلص. السيد ربح عظيم أبدي لا يقدّر بالنسبة لنا. أننا نحن المخلّصين لنا من اشترانا، والذين انعتقوا من عبودية الخطيئة وأصبحوا عبيداً للمسيح يجب أن يصفقوا تهليلا وابتهاجاً لأنهم أبدلوا الفقر بالغنى الذي لا يفسد، والعبودية بالملكوت الأزلي، والوقاحة والضعة بإكليل المجد الذي لا يذبل.
أن عبد البشر وفقاً للناموس كان عبداً لا حرية له ولا وزن له. كان في حالة من العبودية طوال حياته إلا إذا قبل سيده فك قيوده. أما عبيد المسيح فيتمتعون بكامل حريتهم الحقيقية ويصيرون ورثة المسيح إذا هم قبلوا أن يحملوا نيره مدى الحياة، ولذلك يقول الرسول بولس "افرحوا بالرب" مظهراً بكلمة الرب من اشترانا أن المخلص يسمي من يصير شريكاً في فرحه عبداً صالحاً: "أيها العبد الصالح الأمين أدخل إلى فرح ربك" (متى 25: 21) لأنك بقيت عبداً أميناً مخلصاً ولم تمزق الصك الذي

اشتريتك به. تمتع الآن بفرح ربك ومخلصك.
لم يرد المخلّص أن يُعجب بنفسه بل ولد وعاش ومات من أجلنا نحن عبيده. وعندما صعد إلى السماء وجلس على العرش عن يمين الآب جلس من أجلنا نحن البشر. فهو المعزي الأزلي ووسيطنا عند الآب. فإذا كان لنا سيّد كهذا فمحبتنا يجب أن تتجه نحوه لا نحو نفوسنا. ويوحنا المعمدان مثال لهذه المحبة. انه لم يحزن عندما ظهر الرب وخبا مجده. لقد فرح وبشر بالمخلص في الجموع التي لم تكن تعرفه، شعر بغبطة حقيقية عندما رأى نفسه يصغر، والرب يعلو ويكبر، كان الشوق الكاوي اللاهب يتملكه لمعرفة الرب ولتعريفه إلى الجموع. أراد أن يلفت الأنظار إليه كما تلتفت أنظار العروس إلى الختن. كان يوحنا يلتذ أن يسمع صوت الختن وأنت هذه الأمنية تشكل فرحه العظيم ومتعته الروحية.
كان الرسول بولس يطلب المسيح وما للمسيح. كان ينسى ذاته من أجله وتحمل كل شيء في هذا السبيل. كان يتمنى أن ينفصل عن المسيح لعظم محبته له. كان يتمنى أن ينفصل إلى الأبد من أجل مواطنيه الإسرائيليين وخلاصهم وهكذا يتمجد المسيح أكثر. كان يرغب بهذه الخسارة من أجل المسيح نفسه الذي أحبه. كانت إرادته متفقة تمام الاتفاق مع إرادة الرب. لهذا كان يفرح دائماً وما كان ليحزن قط. وعندما كان يكتب بأنه كان يئن ويتعذب من أجل الإسرائيليين البعيدين عن المسيح كان الألم من النوع الذي لا يبعد الفرح عن قلبه، الفرح النابع من محبته للمسيح. كان ألمه مليئاً بالفرح لأنه كان ثمراً للمحبة وكبر النفس. لم يُدخل هذا الألم شيئاً إلى قلبه، لا مرارة ولا قسوة ولا صغارة نفس. ومن وعظه للمسيحيين يظهر انه كان في حالة من الفرح الدائم "افرحوا دائماً بالربّ وأقول أيضاً افرحوا" (فيليبي 4: 4). لقد برهن بالعمل هذا الفرح. برهن ذلك قبل أي إنسان. وأراد أن يكون الفرح دائماً للجميع.

الحياة المغبوطة

مغبوطة هي حياة المسيحيين أنهم يحوزون حتى في الحياة الحاضرة هذه الغبطة بالأمل والرجاء. عندما يترك المسيحيون هذا العالم للحياة الأخرى يشعرون بسعادة أين منها سعادة العالم الحاضر. أن الغبطة في الحياة الأخرى أسمى بكثير من السعادة الحاضرة، أسمى بقدر ما تسمو الحقيقة على الرجاء وبقدر ما تسمو رؤية الله على الإيمان. أن الله يتبنانا وإذاك سيظهر أننا نحن في الواقع أبناء لله فهناك المحبة الكاملة، هناك كمال الغبطة. نتناول نحن المسيحيين أسرار المسيح وبأخذنا لهل نأخذ المسيح ذاته، "أولئك الذين أخذوه أعطاهم سلطاناً ليصيروا أبناءّ لله الذي يؤمنون باسمه" (يوحنا 1: 12). الأولاد يملكون المحبة التي تطرد كل خوف. من كانت له المحبة لا يخاف الجراحات ولا يخشى خسران أجره. يليق الخوف بالاجراء العبيد أما المحبة فهي من صفات الأبناء. أن النعمة تهب نفوس المسيحيين المحبة الحقيقية العاملة في داخلهم. تهبهم الخبرة وتساعدهم في الوقت نفسه على أن يشعروا بالخيرات الإلهية وأن يتذوقوا الخيرات الكبرى ويرجوا الأمور الكبيرة ويؤمنوا بكل تأكيد بالخيرات التي يتذوقونها وينظرونها، خيرات غير منظورة وخالدة وغير فاسدة.
يطلب المسيح منا أن نحافظ على محبته. لا يكفي أن نحبه فقط وأن نشعل شعلة المحبة الإلهية فقط بل علينا أن نغذيها وننميها. هذا ما يعني أن نثبت في محبة المسيح الذي به كل غبطة. أن نبقى في الله يعني أن يكون الله معنا "الذي يبقى في المحبة يبقى الله فيه" (1 يوحنا 4: 16). عندما نطبق في حيلتنا ناموس الله الذي نحبه ننال ذلك البقاء والثبات في محبته. تحوز النفس على هذه العادة أو تلك خبيئة أو صالحة وفقاً للأفعال والحركات التي نقوم بها. يحدث ما يحدث في المهن تماماً. المهنة التي نتقنها تصبح ملكاً خاصاً بنا. فمن طبق الناموس واعتاد على تطبيقه لا يرغب إلا ما يريده المشترع الأزلي. إن النواميس الأزلية الإلهية تحدد أفعال الإنسان الذي يخضع إرادة الله ولا يريد غير الله. "من حفظ وصيتي يكون يكون فيّ وأكون أنا فيه" (يوحنا 15: 10). والحياة المغبوطة هي نتاج لهذه المحبة الإلهية. المحبة الإلهية تنتزع إرادتنا انتزاعاً من كل الروابط التي ليست للمسيح وتوجهها نحوه. كل ما يتعلق بنا رهن بإرادتنا، اندفاعات الجسد، حركة العقل، وكل ما هو بشري. تقودنا إرادتنا هنا وهناك. كل الأشياء تخضع لها. أنها تحكم الإنسان.
أولئك الذين يحبون المسيح يملكون أفكار المسيح دائماً، يرغبون ويحبون ويطلبون ما يريده. وكل وجودهم وحياتهم يقومان فيه. إرادتهم تكون فعالة وحية لأنها تكون في المسيح الذي به كل صلاح. لا

يستطيع المسيحي أن يفعل شيئاً بدون المسيح، كما أن العين لا تستطيع أن ترى بدون النور. الخير لإرادة المسيحي هو كالنور للعين. وبما أن المسيح هو نبع الخيرات فإرادتنا تصبح مائتة خاملة إذا لم تكن خاضعة كلياً له، إذا بقي قسم منها خارج هذا الكنز "من لا يبقى فيّ يطرح خارجاً كغصن الكرمة الذي يجف ويلقونه في النار" (يوحنا 15: 6). إذا أرادنا أن نفتدي بالمسيح ونحيا كحياته يجب أن تخضع كل إرادتنا لإرادته. أن إرادة قوية كاملة خاضعة للرب في كل شيء تقود إلى الحياة المغبوطة. أن عقل الإنسان وإرادته يجب أن يكونا متحدين بالله، فالعقل لكي يفكر بالله أما الإرادة فلكي تلتصق به بالمحبة.

هذه هي الحياة في المسيح الظاهرة بنور الأعمال الصالحة، بالمحبة في المحبة يقوم الضياء، ضياء الفضيلة بالمسيح، والحياة في المسيح تفرضها المحبة. لن يخطئ الإنسان إذا سمّي المحبة حياة. فالمحبة للمسيح اتحاد به وهذه الوحدة تشكل الحياة الحقيقية، كما أن الانفصال عن المسيح يدفع إلى الموت الروحي ويسببه لذلك يقول "وصيتي حياة أبدية" (يوحنا 14: 16)، وتعني الوصية المحبة يقول المخلص "الكلام الذي كلمتكم به هو روح وحياة" (يوحنا 6: 63). فإذا كانت الحياة الروحية هي محبة المسيح فمن الواضح أن المحبة هي القوة الوحيدة التي يجب أن تحرك المسيحي الحقيقي. يقول الرسول بولس إن كل الأشياء ستبطل في الحياة الأخرى أما المحبة فستبقى لأنها ضرورية لغبطة الحياة الأخرى الأزلية في المسيح يسوع الذي يليق له المجد إلى الدهور.

"تمّ طبع هذا الكتاب في شهر حزيران 1982
في مطبعة النور – تلفون 286989
ولحساب منشورات النور
بيروت – لبنان